رحلة
تشتون

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: رحلة تنتون
التأليف: إبراهيم عبد العليم الغازي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 188 صفحة
عدد الملازم: 11.75 ملزمة
مقاس الكتاب: 14*20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/2141
الترقيم الدولي: 978-977-669-7812

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

رواية

رحلة تنتون

إبراهيم عبد العليم الغازي

دار عمان للنشر والتوزيع

(مـا رواه عـارف بـن عليـم الملقـب بـ"تنتـون بـن تنتـن"، ومـا رُوِي عنـه، ومـا وثقـه خـلال رحلتـه العجيبـة، ومـا حـكاه عـن موطنـه ومـا حـكاه فيـه، ومـا خالـط ذلـك مـن ملابسـات خـلال الحـدث العظيـم).

الفصل الأول
مملكـــــة جهنَّم

ذِكْر ما جاء في وصف مملكة جهنَّم

مملكـة جهنـم أو مملكـة التناتنـة تقـع في طـرف العـالم الخفـي، تطـورت طبيعيًّـا وفـق معطيـات البيئـة والمنـاخ، والاحتياجـات الضروريـة للإنسـان، لا يُعلَـم تحديـدًا الزمـن الـذي هبـط فيـه الإنسـان إليهـا، ولكنهـا - وللعلـم - ذاقـت مـرارة مـا ذاقه الإنسـان في كل مـكان عـلى الأرض.

ارتضـت النظـام الملكـي واعتمدتـه نظامًـا للحكـم، وتعاقـب على السـلطة فيهـا ملـوك كثـيرون، بعضهـم أصـاب وبعضهـم أخطـأ، بعضهـم كان قويًّـا، وبعضهـم كان ضعيفًـا، ثـم جـاءت عصـور الاسـتبداد.. فدخلـت الجزيـرة في غياهـب الاسـتعباد، وكان مـا كان فيهـا مـن الطغيـان والاستئسـاد.

وصـل الإسـلام جهنـم بعـد أن جنحـت مجموعـة مـن السـفن التـي تحمـل علـماء وتجـارًا مسـلمين تجـاه شـواطئ الجزيـرة، والتـي

ضلت طريقها في البحار المظلمة قبل ألف عام من وصول آخر ملك من سلسلة الملوك اليهود إلى السلطة، ونتيجة لحسن أخلاقهم وإلمام العلماء منهم بتعاليم الإسلام ومبادئه؛ فإنهم نجحوا في نشر الإسلام بين الأغلبية المسيحية، وبمرور الوقت تحول معظم الجهنميين إلى الإسلام وأصبح دين الأغلبية.

تنوعت مشارب العلماء الذين صدَّروا الإسلام لمملكة جهنم؛ فكان منهم العابد الصوفي، والتابعي السني، وكان منهم الفقيه والعالم الموسوعي، ولم يكن ذلك التنوع يمثل خطرًا على مستقبل الدعوة في بداية عهد المملكة بها، فحقق التلامذة الأوائل استنارة بعلوم الدين التي حصلوها إبان ذلك العهد.

ولكن - بمرور الوقت - التحق بركب الإسلام في البلاد جهلة ومرضى نفسيون، وعباقرة أشرار لهم مطامع سلطوية، ومنافقون لهم طباع سافلة، ورغم اعتناق الأغلبية من عامة الشعب لهذا الدين؛ فإن الطائفة اليهودية مارست شعائرها التعبدية الطائفية الخاصة في سرية تامة، ووصلت إلى السلطة، ولم يحكم الشرع إلا في نطاق ضيق.

تنتشر على نطاق واسع في أنحاء المملكة الأبنية الدينية كافة، ويمكن القول: إن المسلمين والمسيحيين واليهود لقوْا معاملة متشابهة، رغم الشكوك التي تحيط بالأسرة المالكة، وكونها

مسلمة ذات أصل يهودي، أي أنها تتمسك باليهودية وترتدي زي الإسلامِ ؛ لأن الأغلبية الساحقة من الجهنميين مسلمون.

بُعَيْد استقرار أوضاع المملكة بعد الوصول التاريخي للعائلة المالكة إلى السلطة، بدأت المهرجانات اليهودية تكثر، وترتفع سامقات المعابد على مآذن المساجد وأجراس الكنائس، ورغم امتعاض المسلمين والمسيحيين فإن المملكة مضت في الطريق المرسوم لها، بعد أن نجحت أجهزة الأمن الداخلية في إحكام قبضتها على جميع الأقاليم التسعة عشر.

تهالكت المساجد، وأصدر الملك مرسومًا بحرية استقطاب اليهود من جميع أنحاء العالم، وطوَّف باخرة تبحث في البحار المظلمة عن يهود مضطهدين نجوْا في حُمَّى التغيير السياسي في العالم، واندلاع معركة حربية هائلة، المهم أن الملك أرخى العنان لزبانيته ليطوقوا الحركات المناهضة "المفترضة" لنظام حكمه، والمهزومة كرهًا من الأجهزة الأمنية، وتدريجيًّا قلت المآذن، وتداعت الكنائس للسقوط.

***

فيما مضى تساوى كل أبناء الطبقات في محراب العلم، وهي حسنة كان مشهودًا للمملكة بها، أي أنهم كانوا يجلسون إلى جوار بعضهم في مقاعد الدراسة: أبناء الطبقة الأرستقراطية

مـن الأمـراء وكبـار التجـار وأصحـاب الحسـب الرفيـع وكبـار رجـال الديـن، وكذلـك أبنـاء الطبقـة الوسـطي مـن صغـار المـلاك وصغـار التجـار وموظفـي الدولـة، بالإضافـة إلى القاعـدة العريضـة مـن أبنـاء الطبقـة الدنيـا مـن الفلاحـين والعـمال والحرفيـين.

الطبقـة الوسـطي تتسـم بالحكمـة والنظـام والتقاليـد المرعيـة، أمـا الطبقـة الدنيـا فتتميـز بالعشـوائية والفقـر المـادي والأمـراض النفسـية والاجتماعيـة، وتـكاد تكـون الطبقـة العليـا مشـتركة مـع الطبقـة الدنيـا في كثـير مـن أمراضهـا، مـع كونهـما متفاوتتـيْن تمامًـا في الثـروة والنفـوذ.

لم يعُـدْ يحصـل المتميـزون مـن أبنـاء الطبقـة الدنيـا عـلى فـرص العمـل في تخصصاتهـم، أو الوصـول إلى مناصـب حساسـة في الشرطة أو الجيـش، ويعملـون مـع أهلهـم في الزراعـة وقـوارب الصيـد والـورش وقطـع الأشـجار في الغابـات، وقليـل مـن هؤلاء مـن يجوز الجسر الواصـل مـا بـين التعليـم والقصر عـلى معـبر الحـظ والتوفيق.

واحـد مـن هـؤلاء القلـة الذيـن عـبروا إلى القـصر هـو تنتـون بـن تنتـن أو (عـارف بـن عليـم)، لقـب باللقـب الأول لبلوغـه حـدًّا في صنعـة الكتابـة والتأليـف لم يصلـه غـيره مـن الكتـاب أو الخِرِّيجـين، وتعطـي مملكـة جهنـم هـذه الألقـاب، وتُشـتهَر بهـا لمـن يفـوق أقرانه في صنعـة مـن الصنائـع أو مهـارة مـن المهـارات، حتـى أصبـح هـذا

اللقب هو لقب المملكة ككل (مملكة التناتنة)، تعرف به في طرف العالم الخفي. (سيأتي لاحقًا بيان الزمان الذي حصل فيه عارف على لقب تنتون)

رويدًا رويدًا اتسعت القاعدة، وزاد عدد خريجي الجامعات إلى حد كبير، ووصلت ذروة الفساد الاجتماعي أقصاها، بعد أن عجز الأبناء والآباء عن تلبية متطلبات عش الزوجية السعيد، وارتفعت معدلات العنوسة، واختبأ المتمردون في جحورهم إيمانًا بالأفكار الانفصالية، وارتفعت الأسعار بعد تفشي الاحتكار، وضاعت المروءة.

ثم إن معدلات ارتكاب الجرائم ارتفعت بعد أن تفشت البطالة، وانتشرت الشائعات والوقيعة بين أبناء الوطن الواحد، وجاع الكرام، ولجأ السواد الأعظم من الشعب إلى النصب والاحتيال، وضاعت الحشمة، وعمت دور البغاء أنحاء المملكة، وجنح المراهقون، وغودرت قاعات الدرس، بعد استشراء الفقر واليأس والفساد.

***

لم يكن بيت السيد عليم والد عارف (أو تنتون) بيت دعارة، لكنه التحم مع بيوت الدعارة سكنًا خلال فترات انتقاله هنا أو هناك في أقاليم المملكة التسعة عشر، لم يَحُزْ عارف حريته بجريمة

أو اثنتيْن ارتكبهما، ولكنه عرف اللذة والسرقة المُحرَّمتيْن، وقد أوضح له ذلك على كلٍّ حجم الترف الذي تعيشه الطبقة العليا، والتي استغلت الطبقة الدنيا استغلالًا سيئًا، حتى عملت كثير من نسائها في الدعارة المحرمة، والتي أصبحت مباحة قانونًا، وبقيت الطبقة الوسطى - رغم ذلك - تعض بأنيابها على قيمها التي طرقت عليها الطبقة الممتازة بمطرقة الفقر والعوز، وتلقفتها الدنيا بسندان الإغواء والفساد الاجتماعي.

***

الحالة الاقتصادية أشبه بالقدرات المحدودة للطفل الرضيع أو حتى الجنين في بطن أمه.. الملكة التي يأتي ذكر اسمها غالبًا بعد كلمة (الأم الكبيرة)، والتي نجحت في كسب قلوب الأطفال في الفترة الأولى من حكم الملك، صارت تعض أصابع الندم على عدم استهلاك جزء من الخزانة المالية لدعم هؤلاء الأطفال، عندما أصبحوا شبابًا.

أحدقت مشكلة العنوسة بعارف نفسه، بعد أن قضت الإجراءات الاقتصادية الجنونية على أحلامه في الزواج والاستقرار، وضاع طموح الشباب السياسي أمام صلف وكبرياء النخبة الحاكمة، وانتشرت تجارة الأعشاب المخدرة مع تواطؤٍ رسمي من النخبة للتخلص من صداع الشباب.

شـُحبت وجـوه الآبـاء حـين اسـتعرض مسـؤولون حكوميـون (في صـوت خفيـض في أجـواء فكريـة) كيـف وصلـت معـدلات الطـلاق إلى هـذا الوضـع المشـؤوم، فأصبحـت المـرأة تتعـرض للطـلاق مـرة أو أكثـر، واختلفـت الآراء الشـبابية حـول أسـباب ذلـك: الأزمـة الاقتصاديـة، الأمـراض النفسـية، الجهـل، قيـم التخلـف.. إلـخ، أمـا النتائـج فمعروفـة.

***

لإحـكام السـيطرة عـلى الأجيـال الجهنميـة المتعاقبـة جـرت عـادة العسـس والنظـام الاجتماعـي عمومًـا عـلى تشـويذ الصغـار؛ بحيـث إذا كـبروا لا يكـون بإمكانهـم انتقـاد الأوضـاع، ولا إثـارة القلاقـل، ولأجـل إحـكام الأمـر عـلى هـؤلاء الصغـار ينعتـون بصفـات مهينـة مثـل "مُؤَخِّـرَة"، والتـي مـع الوقـت يصبـح لهـا تأثـير السـحر، خصوصًـا مع أولئـك الصغار الذين ينتظرهم مجد شـخصي أو شـهرة، ويعـرف ذلـك بتفوقهـم الـدراسي أو نبوغهـم أو جـلاء مواهبهـم.

لا يمكـن اتهـام الجهـات الأمنيـة وحدهـا بالمسـؤولية الكاملـة عـن التشـويذ، ولكـن وقعـت حـالات اغتصـاب عـلى مسـتوى أقاليـم مملكـة جهنـم داخـل المعتقـلات السريـة، كان مـن نتيجتهـا ظهـور التطـرف الدينـي الـذي أصبـح لا يمكـن السـيطرة عليـه بالكامـل، خصوصًـا مـع بعـد تلـك الأقاليـم عـن السـلطة المركزيـة في وسـط المملكـة.

وجرى العرف على أن يتعرض الصغار للاعتداءات الجنسية، وهذا جعلهم موضع سخرية المجتمع حتى في سن الكهولة والشيخوخة، ونودوا بألقاب توحي بنوع من السادية، ولم يعد في الإمكان الوقوف على أدلة دامغة حول ضلوع مفكرين أو شخصيات أو أنظمة، اللهم إلا العرف الاجتماعي الذي لا يخدم سوى النظام الملكي القائم بأطيافه كافة من عسس، وبصاصين، وقتلة، وسفاحين، وشواذ حقيقيين.

***

واجهت دفعات ليست بالقليلة من الجهنميين أو التناتنة أحكام الإعدام، وسرعان ما تُرْتَجُّ الصدور بدقات القلوب فور نشر الجرائد والأجهزة السحرية لأنباء القتل، وسلسلة السرقات، والفساد الإداري من رشوة ومحسوبية.. إلخ، القائم على الجريمة كل مرة يختفي ويختفي الكثيرون من البرءاء اختفاء قسريًّا، وتحت سوط الجلاد، والتهديد بالاغتصاب يصبح الاعتراف بالجريمة والجريمة المنظمة أمرًا حتميًّا، للفرار من هول التعذيب ومطرقة البصاصين وجبروت السجان، ويكاد المرء يعمى بصره، وتنهد قواه، ويسخط سمعه من سماع أحكام الإعدام والقضايا الملفقة أمام المحاكم غير الشرعية، والتي يبلغ فيها المرء قيمة النملة تحت قدم الجندي في الحرب أو البرغوث في أيام السلام.

دارت سجالات عدة في المجالس المختلفة، وأذيعت أنباء على مر السنوات تتحدث عن حذف حكم الإعدام من قائمة الأحكام، ولم يتغير شيء، ويبدو أن الملك عرف طريقه إلى القلوب، حين بذل ما في وسعه لتخفيف أحكام الإعدام في بعض المرات إلى السجن مدى الحياة، والأشغال الشاقة، لكن لا أحد يعلم أن القائم وراء كل تلك الجرائم كان شخصًا معروفا للجميع، لا يجرؤ أحد على ذكر اسمه دون كلمة (مولانا).

***

برع جهاز الأمن الداخلي في صناعة الرعب لكل الجهنميِّين، اللهم إلا بعض المتمردين على الأعراف الاجتماعية، والمتفوقين والنابغين من أبناء الطبقة الدنيا (البروليتاريا)، غاب هؤلاء خلف كواليس الحياة اليومية في كتب ومجلات وجرائد محدودة التوزيع، ونجحوا نسبيًّا في إقامة حياة خاصة بائسة نوعًا ما، وساخرة أحيانًا من واقع مزرٍ خلقه الخوف، وشربت منه لبنات بنائه حتى الثمالة، حتى لم يعد هناك فرق بين عالم وجاهل.

يجرى التخويف على قدم وساق لكل أولئك الجامحين، الذين يخرجون على عرف المجتمع باستخدام السحر في منعهم من ممارسة حقوقهم الإنسانية، سواء الجنس أم الفكر المنهج أم غير المنهج، وحتى في ممارسة الحياة الطبيعية التي قوامها

العقل والمنطق والنفس المطمئنة، ويعانى الكثيرون من أمراض نفسية خلقها السحر، وزادت فيها الشعوذة التي يخلقها المجتمع بقوته الجاهلة وعنفوانه غير الطبيعي، وتفكيره غير السوي.

إنه سلاح مجتمعيٌّ فعال، في مواجهة أولئك الخارجين على العرف والقانون الفاسد، وهناك أساليب علمية شديدة الوطأة؛ مثل حقن الشخص المصاب بداء الحرية واللاانتماء بمواد كيماوية تدمر عقله وجسمه، وتجعله يرتعد أمام أبسط موجات التخويف أو الإرعاب، تجعله كائنا هشًّا غير قادر على حماية نفسه أو حماية غيره، أو إقامة بنيان أسري صحيح أو ناجح.

الإرهاب النفسي يتخطى ذلك إلى التعذيب الممنهج في المعتقلات السرية من أجل تطهير المجتمع تدريجيًّا، أو بصورة عاجلة من أولئك الذين يدَّعون الشجاعة، أو يقفون أمام النظام الذي أقامه الملوك، وظل صامدًا أمام محاولات التثوير أو التفكير أو التنوير.

***

بغير أصحاب العقول النيرة والأجساد الفائرة لا تكون هناك قوة للدولة ولا مستقبل للشعب، ما يثار هنا هو تضمين للعكس تمامًا، فأصحاب العقول يتعرضون للتذهين المباشر، عبر آليات بدائية أو طبية في العيادات والمستشفيات، أو حتى على مستوى الأسرة.

هـذا وتمتلـئ المستشـفيات العامـة والخاصـة بالكثـير مـن أصحـاب العقـول المختلـة، الذيـن كان ينتظرهـم مجـد شـخصي؛ بنـاء عـلى مواهبهـم، ولم يفلحـوا في مغـادرة المملكـة بعيـدًا عـن التصعيـد والقتـل المتنـوع (ملفـات كثـيرة سريـة للغايـة تتحـدث عـن القتـل بالحمـض المركـز، والفـرم، والدفـن حيًّا، والحقـن بالملوثـات، ملفات وملفـات كثـيرة تتنـاول العقل كخطـر على ديمومـة الاسـتبداد ودوام الاسـتعباد، وكأن الأرض نفسـها تقاتـل إلى جانـب الملك وحاشـيته).

تتفـاوت التقاريـر التـي تتحـدث عـن التذهـين في الأدوات والآليـات والنتائـج، فالتذهـين كان بدائيـا، ثـم صـار علـماً راقيًّـا بدرجـة كبـيرة أو فائقـة، حتـى إن جيـش المملكـة – رغـم ضعفـه – صـار يسـتخدم مصطلـح الدمـار والرعـب؛ لوصـف الصدمـات التـي يحدثهـا عنـد مهاجمـة هـدف داخـلي؛ بحيـث يـترك الحليـم حيرانًـا وعاجـزًا عـن المقاومـة فيلجـأ للتسـليم.

ولم يكـن هنـاك بـد مـع وصـول الأسـلحة السـحرية والأدوات السـحرية والأجهـزة السـحرية إلى المملكـة، مـن تطويـر مفهـوم التذهـين الـذي ارتقـى إلى مفهـوم القتـل بالجنـون، وبدائيًّـا وعلميًّـا لم يعـد هنـاك إمـكان للوصـول إلى العقـول الشـابة بالطـرق البدائيـة؛ حيـث بـدأت تسـتخدم ميكانيزمـات دفـاع متطـورة.

***

يعمل الإرهاب الفكري بشكل مركز على إرعاب العقول وفق آليات كثيرة؛ أولها: الطرق بيد من حديد على فكر الجماعات المعارضة؛ بتجفيف منابعه ومنعه من الخروج للواقع، أو المناظرة الحقيقية مع خصمه اللدود (فكر النخبة الحاكمة)، ثانيها: تخويف العوام من خطر الأفكار المناهضة للملك على الاستقرار والأمن وبيوت الدواجن الواهية، التي تبتعد عن الحرية في قليل أو كثير، ولا تصمد أمام دفقات الاستنارة، إنهم يعيشون في بيوت صنعتها عقولهم المفرغة من فكر المعارضة الحقيقي، وليس في بيوت صنعها الاستقرار والحرية. ثالثها: التدليس على الخواص عبر منح الحريات المنقوصة، التي تجعلهم - وهم في مكانتهم تلك - أحط من الدواجن في بيوتها، فالعوام معذورون في غياب الوعي، أما الخواص فكل أسباب الوعي موجودة، وكل عوامل البناء قائمة في عقولهم، وتخويفهم المستمر من سلب كل تلك المقومات بالقتل، أو السجن، أو النفي يضعهم أيضًا في بؤرة التدجين.

***

مملكة جهنم كانت في حضيض الأمم الإدارية، إنها شبه دولة، يستغل الملك فيها قبضته على السلطة في إدارة فساد عظيم الفائدة عليه وعلى أقليته الممتازة، لاح ذلك في تجليات كثيرة:

أولا: الإطاحة بكل الشرفاء في السلم الإداري بطرق عدة منها: المعاش المبكر والإقالة، وتلفيق القضايا.

ثانيًا: التعتيم الكامل على ميزانيات هيئات عدة؛ منها الجيش والعسس.

ثالثًا: التشويه المتعمد لشخصيات وجيهة برشاوى جنسية، وقصص مفبركة وشائعات مغرضة.

أخذ الفساد الإداري منحًى غريبًا وكبيرًا في الوقت نفسه، حين أجرى الملك - وفق مرسوم سيادي - حركة إصلاحية أو تصحيحية في كيان الدولة (هكذا سماها) طالت الكثير والكثير من الهيئات العليا والمتوسطة والدنيا، وكلفت الخزانة آلاف الآلاف، ثم إنه لم يعد مفرٌّ من المضي قدمًا في الأمر؛ فالمصفقون موجودون والمستفيدون كثر: ما يعرف بمافيا السلع والمنتجات الغذائية، صغار التجار وكبار رجال الأعمال، المرتشون من كل الطبقات، الولاة ورؤساء الأقاليم، والمسؤولون الشرطيون ومن في سلكهم.

فنجحت الحركة طبعًا وخلت الخزانة.

***

تسببت الشائعات وعلى مدار السنوات التي حكمت فيه العائلة المالكة مملكة جهنم في إهدار القيم وأولها الصدق،

وفي توزيع الرعب، وانتشار ثقافة الخوف في ربوع المملكة، وتربصت العصابات بالناس، ومنعت سيرهم ليلاً، فأصبح التناتنة كائنات نهارية تخاف الجن والصعاليك والشطار، وتئن نفوسها وأسماعها حين تذكر مذابح وهمية تخلع القلوب من وصفها، وتدمر النفوس من أصلها.

***

هناك ميزانية ترصد للضغط على الرأي العام عبر أجهزة سحرية؛ حتى يتوقف الدماغ عن التفكير والتدبر، ويصبح إسفنجة تتشرب ما يسقط عليها من قطرات الإعلام، إجراء هنا وإجراء هناك.. قانون يصدر وقواعد توضع، والمياه تجري في مجاريها الطبيعية عبر آليات السحر؛ سحر العين، وسحر الأذن، وسحر المشاعر.

كان لابد للملك من طبالين يُدوِّخون عقول الناس مع إشراق الشمس وهطول الأمطار، وأن يضخِّموا شأنه حتى تزداد هيبته في النفوس، إنهم أصدقاؤنا الحمقى والمغفلون الذين يُذوِّبون السم في العسل، حين تدق طبول الحرب لابد أن تدق طبول الإعلام على الآذان، وحين ترتفع أبواق السلام لابد أن تنفخ الشعوب في أبواق الإعلام، وحين يذهب الملك إلى الحمام فعلى كتيبة من الإعلاميين أن تذهب معه كي تسانده.

تنفق الأموال الضخمة لتدشين برامج لعرضها عبر الأجهزة السحرية فيها تمجيد لمولانا الملك، وفى الوقت نفسه يحتاج المرضى الذين يُلْقَوْن خارج المستشفيات إلى هذه الملايين والمليارات؛ لإنفاقها على العلاج والصحة والتعليم، الذي يصفق له الإعلام على أنه نظام ممتاز.. رغم انتشار الأمية وانعدام الصفة الأمنية في المدارس الآيلة للسقوط، إنه إعلام محترف يسوق جيدًا لملك لم يعد فساده بحاجة إلى إعلام ليسلط عليه الضوء.

***

تظلم العامة، وارتفعت تدريجيًّا صيحات الاحتجاج السري من قبل الطبقة الدنيا من أبناء العمال والفلاحين والحرفيين (لا يعرف التناتنة أشكال الاحتجاج العلني، وإنما يكتفون بالسب واللعن والشتم سرًّا)، وهذا استدعى أن تقوم الطبقة الوسطي بدورها في حفظ الأمن الاجتماعي والسياسي، والاقتصادي.

اجتزأ الفقهاء الدستوريون القانون والدستور وجعلوه لحماية مصالحهم، وصاغوا من المواد ما يمنع قيام الإنسان بدوره في الحياة السياسية، ووقفوا أمام أصحاب المواهب والمثقفين فحظروا عليهم الحياة النيابية؛ فغابت الشفافية، وتضاءلت روح الإنسان، وقضى المواطن عمره لا يطمح إلى نفوذ سياسي، ولا

تداول طبيعي وسلس للسلطة، فأصبح الشعب أشبه بالجثة الهامدة، وتندر المثقفون الجهنميون فزعموا أن رجلًا ذهب إلى حكيم فقال له: أريد أن أصبح سياسيا، فقال الحكيم في صوت متهدج: عليك بالكذب ما شئت، وبالصغار ما رغبت، وبانعدام الأخلاق ما تعاملت، وليكن الغدر شيمتك، والهذر سبيلك.

دارت رحى الحرب الكلامية على نُطُقٍ واسعة، وأمر الملك بإجراء حوار اجتماعي في الجامعات والمؤسسات العامة والخاصة، ولكنه لم يناقش لا هذا ولا ذاك في الأسباب الرئيسة التي دعت إلى نشوب التوتر بين مؤسسات الدولة والحكومة وجموع الشعب، كما أنه لم يعلن عن بلوغ التوترات حد رفع السلاح في وجه السلطة، ولا غياب المتمردين في رؤوس الجبال وداخل الغابات والمستنقعات في الأقاليم التسعة عشر.

في الإقليم الأول

قبل أن تنفضح مخططات الأقليات اليهودية لضرب الثقافة الدينية للأغلبية، بدءًا باللغة وانتهاءً بالأخلاق.. كان ضمن آليات الشخصيات ذات التأثير الديني نظام الكُتَّاب، وهو

يوازي التعليم ما قبل المدرسي في الكيانات المتقدمة، غير أنه يُوَفِّر التعليم مجانًا للقطاع الأكبر من تلامذة المسلمين، ويشرف عليه ويموله مجموعة من المشايخ والأثرياء الغيورين على الملة، والذين لم تفلح معاول الهدم في إيقاف نشاطهم.

رزق الشيخ عليم، الذي كان يقيم في هذا الإقليم، طفلاً صفيًّا عفيًّا، لمح في عينيه وهو في المهد نور الحكمة والإشراق، وبدت عليه أمارات الجمال والبهاء، فسماه "عارفًا"، ودعا له أن يكون ودودًا متآلفًا، وسرعان ما خطا على الأرض بخفة الغزلان، وتكلم بعد حين فأحسن البيان، فحار أبوه الصوفي المريد، كيف يعلم ابنه القرآن المجيد.

ونظرًا لكون السيد عليم والد عارف قد ولج إلى الفقر من باب واسع، فإنه لم يجد حرجًا في أن يلقن ولده القرآن، وأن يتعلم القراءة والحساب في ضوء معطيات عصره وثقافة جيله التي تقول:

"إن رسالة الله تصل إلى قلوب العارفين بدءًا من الكُتَّاب".

وظهر نبوغ عارف في هذه السن الصغيرة فعرف القراءة والكتابة والحساب، واستظهر القرآن كاملاً وهو لم يتخط السابعة.

في الإقليم الثاني

إقليم صحراوي شاسع، فيه بعض الجبال وبعض الغيران والكهوف، وكثير من الحيوانات النادرة، وعدد لا بأس به من أصحاب الخلوة الذين يطمحون إلى السير قدمًا في طريق المريد والشيخ.. بعضهم أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وبعضهم التحق بالكتاب، وقليل منهم حصل على الحد الأدنى من التعليم الديني والنظامي المدفوع الأجر.

الشيوخ منهم متمرسون في العبادة، يتحدثون مع الغرباء عن سعادة داخلية وإحساس عارم بالنشوة، يرقصون.. نعم يرقصون، ويهتفون في صوت واحد متتابع من خلال الحلقات: "الله.. الله.. الله حي"، حين يبلغ المريد النشوة يسكر بخمر العشق، يُغْشَى عليه، يفيق بكأس من الماء، والماء قليل والصحراء قاسية.. تحت أشعتها اللاهبة يرحلون شرقًا وغربًا، لا يخرجون من حدود الإقليم إلا بعد فترة من الزمن، تطول أو تقصر.

ألحق عليم ولده بمعية الإمام "رشد" أحد شيوخ الصوفية في هذا الإقليم، وظل يعيش حياة الزهد والتقشف تلك حتى ناهز البلوغ، استطاع بعدها أن يخرج من الإقليم حاملاً في

جوانحه إشراقًا، وفي قلبه إيمانًا، وفي عقله صفاءً، رغم اتهام الكثيرين للصوفية في هذا الإقليم بالتخلف واختلاق البدع.

يزعم شيوخهم أن لهم تأثيرًا في العالم المحدث، ويتحدثون عن علم لَدُنِّيٍّ وإشراق وتوحد، بعض الشيوخ منهم التقى ببعض الأساتذة النظاميين، ودارت بينهم مناظرات حول وحدة الوجود والفناء، أسفرت عن اتهام الأساتذة للشيوخ بالجهل، واتهام الشيوخ للأساتذة بالعلمانية بل والردة.

كان التصوف في أول عهد المملكة به سنيًّا، بعيدًا عن الخرافات والدجل والشعوذة، يعني أنه عقيدة وعبادة ومبدأ وسلوك يتسم بالوسطية، ويبتعد كثيرًا عن المفهوم اللاحق الذي اعتنقته القرون المتأخرة، وقد أثار تفرقة بين الأساتذة النظاميين والبدائيين على السواء؛ بحيث صعب عليهم لفترة طويلة الجلوس إلى طاولة واحدة، ومناقشة المبادئ التي توحد كلمتهم في مواجهة المد المتصاعد للتيارات العلمانية، تلك التي تنادي بتحجيم دور المؤسسات الدينية، ومنها المساجد الجامعة (أغلقت لاحقًا).

اتهمت تيارات دينية أخرى شيوخ ذلك الإقليم ومُعَلِّميه بإنتاج فكر يشجع على الغيبوبة، كما أن ما يَدْعون إليه ليس له أصل في الكتاب والسنة، وهذا حمل بعضهم على هجر الإقليم، ورغم أن ما يدعو إليه الصوفية لا يشكل خطرًا سياسيًّا، فإن

الدولـة ضيقـت عليهـم الخنـاق، وحملتهـم مسـؤولية السـعي لنـشر الفـوضى في الآفـاق.

في الإقليم الثالث

هـذا الإقليـم أقـل مـا يُقـال عنـه: إنـه جوهـرة، إنـه حقًّـا كنـز عظيـم، يتسـع سـاحله لرمـال بيضاء وصفـراء وحمـراء، ومياه صافية كالمـاس، تلمـع تحـت أشـعة الشـمس المشرقـة، وتتـشرب لونهـا عنـد المسـاء، شـفقًا أحمـر يمـلأ الأفـق بروعـة المـكان وعبقريتـه.

في وسـط هـذا الهـدوء، وذلـك الجـمال الربـاني، وعـلى تلـك الرمـال الناعمـة، هبـط إلى العـالم طفـل وسـيم، سرعـان مـا نـما وترعـرع جسـده تحـت أشـعة الشـمس الرائعـة، والأمـواج البديعـة، وكأنـما نُحِـتَ جسـده مـن فـولاذ، وخفتـه مـن دولفـين.. درَّبـه أبـوه – الـذي كان سـباحًا ماهـرًا – عـلى اقتحـام المـوج منذ نعومـة أظفاره.

وخـلال مراهقتـه نجـح "العـوام" وهـذا لقبـه الـذي اشـتهر بـه، في سياسـة المـاء، ودار في شـبابه حـول الجزيـرة سـباحة في مـدد تـتراوح بـين أسـابيع وأيـام.. عشـق رمـال الإقليـم الـذي هـو

مسقط رأسه، فلم يبرحه للإقامة الدائمة في أي إقليم آخر.. وكان للعوام - ذلك السباح المسلم، والغواص التقي - الدور الأكبر في انتعاش تلك الرياضة في أقاليم الساحل، ومن ضمنها الأقاليم السبعة قبل أن يغزوها المستعمرون.

لم يكن سباحًا فقط، ولكنه اكتسب قُوته من الصيد، ورزق في عمره القصير بنين وبنات، فنشأهم تنشئة دينية صارمة، وتبنى فكرًا محافظًا، وحين سقطت الأقاليم السبعة ضحية الاستعمار، شارك في اختراق الحصار المضروب عليها من جهة البحر، وساند المقاومة المسلحة التي سرعان ما هُزِمَت، وقضى العوام غريقًا شهيدًا قرب ساحل إقليمه الحبيب.

ضمن مجموعة من خيرة شباب المملكة تلقى عارف دروسًا مكثفة في السباحة، تحت إشراف العوام، كما أنه نجح في تعلم الصيد، واتخذه مهنة يتعيش منها (لما بلغ تنتون الخامسة عشرة وأصبح مراهقًا فقد أباه وأمه في مدتيْن متقاربتيْن، واعتمد على نفسه في توفير متطلبات الحياة، ولم يَعُلْهُ أحد؛ حيث إنه لم يعرف له أقارب أحياء من ناحية أبويه، كم أنه وحيدهما لم ينجبا سواه، فعمل في المزارع وورش الحرفيين ومراكب الصيادين، فاكتسب جلدًا وقوة جعلته يدخل عالم الرجال مبكرًا).

في الإقليم الرابع

الرياح التي تهب من داخل ذلك الإقليم الأخضر، ومنظر الماء الصافي الذي يتسلل وئيدًا خلال مجرى النهر، من المنبع وانتهاءً ببحر من الكثبان الرملية، يشكل أقاليم وسط الجزيرة الخضراء والصفراء، هذا التنوع والهدوء يشكلان أساسًا للبحث في المطلق، وينميان أسس الإيمان بالعقل والمنطق، أو يدفعان بعيدًا عن العقول بدهية وجود الله.

البروفيسور زكي وزملاؤه في جامعة هذا الإقليم الحكومية – التي انتمى لها عارف لمدة أشهر فقط – يذهبون إلى أن العقل الناضج السليم يستطيع الوصول إلى علة كل شيء، كما أنهم يُرْسُون الدعائم للعبور من الإلحاد إلى الإيمان خلال رحلة تطول أو تقصر.

هؤلاء الفلاسفة لا يناقشون الوجود الحاليَّ، وهذا ما يطمئن القصر، وإنما يناقشون في هدوءٍ تامٍّ أصل الوجود، وكيف يصل الإنسان ذلك المخلوق الضعيف إلى الخلود.. بينهم إسلاميون وملاحدة، ومسيحيون ومطرودون من الكنيسة، وقد عبر البروفيسور زكي من الإلحاد إلى الإسلام خلال رحلة طويلة تمتد بامتداد شبابه، كما أن إرادة الله شاءت أن يعود إلى حظيرة الإيمان، مع اشتداد قواه العقلية في سن الأربعين.

العقـول الكبـيرة تلك لا تخلو من أسـاتذة هدَّامـين وآخرين باحثين عـن الحقيقـة، لكـن لا يتبـادل الطـلاب في تلـك الجامعـة الاتهامـات بالـردة، وإنما يتنافسـون في قراءة الفلسـفة الأولى (الحكمـة)، وينتجون فكـرًا اجتماعيًّـا حرًّا.. لا تسـتطيع أن تحبهم، كما لا يمكـن أن تكرههم.

يعـزز مـن فـرص وصولـه إلى هـذه الجامعـة أن عارفًـا يعمـل منـذ سـن مبكـرة، والحكمـة تمكنـه مـن الإجابـة عـلى أسـئلة كثـيرة تـرد إلى ذهنـه: حـول الجـدوى مـن الحيـاة، والنهايـة المنتظـرة، ومـدى قـدرة العقـل عـلى الوصـول إلى الله.

في الإقليم الخامس

تخلصـت السـلطات مـن عـدد كبـير مـن الرعايـا، وأرسـلتهم إلى المنفـى، وهـو إقليـم يتسـم بالغمـوض، ويعـزز مـن الرهبـة في نفوس قاطنيـه، خاصـة الجـدد منهـم.. بغايـا وقحـاب أصابتهـن الأمـراض الجنسـية، ومـرضى عقليـون لم يعالجـوا بالشـكل الصحيـح.

ونتيجـة للوضـع الأمنـي المتـأزم بـين القـصر ورجـال الديـن والمثقفـين، سـيق إلى المنفـى تلامـذة مـدارس متفوقـون وآخـرون

موهوبون وواسعو الاطلاع؛ نظرًا لما تشكله توجهاتهم من خطر على استتباب الأمن، خاصة بعد أن هاجر بعضهم إلى بلاد بعيدة، ثم عادوا يرطنون ببعض المصطلحات غير المفهومة عن مجتمع شيوعي وآخر ليبرالي.

كان الجمع بين هؤلاء وأولئك من كل الأطياف جديرًا بتهذيب فكر الجهنميين، أو إنهاء حياتهم ببطء عبر نقل الأمراض المعدية إليهم، خاصة وأن غالب من يُدْعَوْن ليبراليين وشيوعيين منهم يفتقدون إلى السمو الروحاني، وسينغمسون في متع ساقطة مع بائعات الهوى المنفيات في ذلك الإقليم الغامض.

على عكس المتوقع - ورغم نشأته الدينية المحافظة - عقد عارف صداقات مع الليبراليين والشيوعيين، باعتبارهم مثقفين يحملون همًّا وطنيًّا، وقد عرف من خلالهم الفرق بين اليمين واليسار، وسمع لأول مرة عن مصطلحات الركود الاقتصادي والدورات الرأسمالية والشيوعية المثالية والمرابين، وناقش أصدقاءه الجدد في كيفية تطبيق ما يدعون إليه؛ إذ كانوا يفتقرون إلى آليات التنفيذ، خصوصًا وأن عددهم قليل، كما أن البلاد تخضع لحكومة الفرد المطلق؛ فلمس في نفسه وفيهم سذاجة إلى حد ما.

أقيم سلك شائك كبير يلف المنفى من كل جانب، وشددت عليه الحراسة، وعاش قاطنوه حياة بدائية، وصُرِّح لراغبي الصيد والمتدرِّبين على استخدام السلاح اعتبار من فيه أهدافًا مرخصًا بإصابتها.

تدرب فيه عارف على الصيد بالرمح والسهم والفخاخ، ونظرًا لطبيعة الجبال القاسية فقد أثمر هذا الكنز أمامه رؤية واضحة للحياة، سوى ذلك أثار عارف المشكلات، فرفض بشدة صيد المجانين و القحاب رغم فقدان الأوائل لعقولهم، وكونهم عبئًا على المجتمع، وفقدان الأخريات لشرفهنَّ فصرْنَ عارًا على عائلاتهن؛ لأن الإنسان في نظره أشرف مخلوقات الله حتى لو كان مجنونًا أو داعرًا.

في الإقليم السادس

في تلك الحقبة السوداء من تاريخ المملكة، زرعت بذور الفتنة والشقاق بين طلاب العلم، بل وبين العلماء الكبار، وكما برز تعليم ديني وآخر نظامي، ظهرت أيضًا عقائد صحيحة

وأخرى دخيلة لم يسمع بها الجهنميون من قبل.. عقائد أشبه ما تكون بالفكر الأحادي الذاتي التجربة والاختبار.

استثمرت الأقلية نفوذها في إدخال الفساد إلى عقيدة الجهنميين؛ فحدث صراع بين طلبة العلم في المساجد الجامعة حول ذات الله وصفاته، وظهر مصطلح التشيع، وتبادل التلامذة متوسطو الفهم الاتهامات بالردة، ولاحقًا ظهر التكفير بالفتوى؛ ففسدت الأخلاق، وتعقدت سبل التآخي، وضاعت قيم التسامح.

تمسك الفقيه الأكبر في هذا الإقليم المتاخم للعاصمة بعقيدة واحدة لا يجوز تخطِّيها إلى غيرها، ولا أن يكون العقل هو النبراس الوحيد لمناقشة العقيدة والشريعة؛ فالشريعة – بحسب معتقده – جاءت من السماء، وهي تقوم على أسس معروفة؛ أولها القرآن وثانيها السنة وثالثها الإجماع ورابعها القياس، وهذا الأخير كان سببًا من أسباب اضطلاع الكثيرين بالفُتْيَا، وإحرازهم نوعًا من القبول لدى العامة؛ مما تسبب في فوضى عارمة في الفتيا طالت المنتسبين لها في أنحاء الإقليم كافة، ولم تكن الأقاليم الأخرى بمنأى عن ذلك التيار الجديد؛ فقد انغمس مُفْتُوها هي الأخرى في إخراج فتاوى غير مسؤولة.

ثم حدثت الواقعة الكبرى التي أدت إلى إرسال بعض العلماء

إلى المنفى، بعد أن أصدر هؤلاء العلماء فتوى تتهم – حسب تحليلات أمنية – الأمراء والملك وأسرته بالخروج عن الملة.

لم يشارك عارف في الجدال الدائر، كما أنه نأى بنفسه عن صدام مع أيٍّ أحد بسبب العقيدة والشريعة، واعتبر ذلك – على مستوى شخصه – سياسة موجهة لضرب التعليم الديني، والقضاء على فورة الإيمان، التي هي البقية الباقية من الأمل في مستقبل زاهر لوطنه.

في الإقليم السابع

تنقسم جغرافية هذا الإقليم إلى قسمين؛ قسم مستوٍ وسهل يناسب الزراعة والنشاط المتوازن المستقر، والقسم الثاني عبارة عن مجموعة من الجبال والكهوف والغيران، ورغم مساوئ الحكم وثقل الضرائب فإن مواطني الإقليم نزعوا إلى احتراف الأدب باعتباره وسيلة ترفيهية.

شجع نمط الحياة في هذا الإقليم عددًا من الأدباء على استحداث نوع من الشعر، يناسب السواد الأعظم من الناس؛

فحمل بعضهم آلاتٍ موسيقيةً بسيطةً، ومارسوا الغناء كصناعة، وقبلوا الأعطيات من العامة، وذاعت شهرتهم كجوَّالين.

من هؤلاء الجوالين من عاش حياة ماجنة فاسقة، مارس الرجال منهم الجنس دون ضابط، وبالموازاة مع ذلك فإن النساء مارسن الغناء والرقص والبغاء، وإذا كان الهدوء شرطًا من شروط الإبداع عند البعض؛ فإن الصخب هو الطقس الذي مارسه بعض الجوالين من أجل الإبداع.

ظهرت قصائد شعرية منحلة؛ لتعبر عن تلك الحياة التي عاشها الشعراء الجهنميون، ثم إن آخرين ناقضوا تلك الحياة وأنتجوا شعرًا صوفيًّا يتغنى بالحب الإلهي والتوبة، وتحولوا إلى نساك..

أثَّر الفريقان في الرأي العام، خصوصًا مع إتاحة الغناء ذلك الفن الذي يعشقه الجميع، وبهذا أصبح الجوالون سيئي السمعة في شبابهم، وشجعهم على ذلك سكوت السلطات وعدم إيقاف نشاطهم؛ إذ حاربت الشرطة فقط التيار الديني الذي تبناه الشعراء النساك، واعتبرته مناهضًا للنخبة الحاكمة، التي كان يروق لها المجون بشكل واضح.

وطبقًا لما دُوِّن عنهم فقد نبغ فيهم شاعر جاد وحكيم يُدعَى "وليدًا"، أقرض الشعر لا للتسلية، ولكن باعتباره فنًّا

راقيًا يؤرخ للعدالة الغائبة والفكر المستنير، وقد فرَّ إلى الجبال، وبحث عنه الأدباء والأصدقاء الأوفياء والعامَّة السُّذَّج ورجال الأمن الماكرون.

وكان ما كان من أمر وليدٍ، الذي وجده عارف منكبًّا على مخطوطة يقرؤها لشاعر قديم، ووفق أقوال الأخير وتصريحاته، فقد اختار معلمه هذا المنفى الاختياري وسط الجبال؛ ليعيش حياة حرة، ويستمتع بالحياة بعيدًا عن الحضارة الحديثة – إذا جاز أن تسمى الفوضى التي تعيشها مملكة جهنم بالحضارة؛ حيث لا يوجد نظام ولا عرف اجتماعي في أغلب الأحوال.

تعلم عارف كثيرًا فأنشد الشعر، وتقمَّص أدوار الحكماء والشعراء والعلماء، وتربَّص بالفكرة الحائرة، والكلمة السائرة، والمثل المطابق، وودع اللجلجة والقلقلة والشذوذ اللغوي، وأصبح لسانه سهلًا وعلمه باللغة كثيرًا، وانشغل بما ينشغل به الشعراء، فأقام الشعر، رغم كون شعره غير رائع للدرجة الكبرى (لاحقًا ألَّف عارف شعرًا حرًّا غير مرتبط بموسيقى معروفة؛ لأنه كان متمردًا بطبيعته)؛ فإنه ألَّف شعرًا متوسط الجودة، يُرْضي ذائقته وذائقة مُعلِّمه الذي أصبح ذا شهرة ذائعة الصيت.

في الإقليم الثامن

طاقة كبيرة تمكِّن الإنسان من السمو.. تلهمه الحكمة والحرية، طاقة أكبر تجعله قادرًا على إلهام الآخرين، تُدَلِّل على أن له باعًا كبيرًا في الحياة، تجعل موضع كلماته دافئًا ومؤثرًا، وكذلك تأتي الأفكار وتذهب.. تموت وأصحابها أحياء، أو تعيش رغم موت أصحابها.. تمامًا كالفنون والآداب.

لا أحد يعرف: لماذا يعيش أغلب أصحاب المواهب والطاقات حياة منحرفة؟ إنه السؤال نفسه الذي طرحه عارف على نفسه، بعد أن اختبر نفسية "جَرْول" القاص والأديب، فقد حمل بين جوانحه تناقضات هذا الإقليم الذي يعيش مرحلة من القحولة والجفاف، رغم الأمطار التي تنحدر وتنصَبُّ عليه من الجبال المحدِقة به، كان إلى وقت قريب مسرحًا للفاسدين أخلاقيًّا، يمارسون فيه الرذيلة دون رقيب ولا حسيب، كما أن هؤلاء أشبه بالمنبوذين رغم عبقريتهم، يشبهون المعاقين في التقاليد الإسبرطية القديمة.

"اغربوا من هنا" كلمة لطالما تكررت على ألسنة العامة وعلماء الدين، إنهم يتهمون هؤلاء بزعزعة استقرار "الدولة"، وهم لا يقصدون بذلك الحكومة، إنهم غير راضين عن زنا

هـؤلاء ولواطهـم وعـن الخمـور التـي يعاقرونهـا، عـن الأخـلاق المتعفنـة كافـة، والتـي لا يشـبع منهـا جـرول وأصدقـاؤه.

ولكـن كيـف تتلمـذ عـارف عـلى يـد جـرول؟! فتنشـئة عـارف تقيـة نقيـة، إن الأمـر بمنتهـى البسـاطة؛ فقـد ذاعـت شـهرة جـرول كحـكاءٍ جـريءٍ لا يبـالي بالقيـود، وكان عـارف قارئًـا نهـماً.. معجبًـا بـالآداب والفنـون، تسربـت إلى عقلـه لعنـة الشـغف بـكل مـا هـو غريـب وغـير محـدود، تعلـم منـه "أن الأخـلاق أمـر شـخصي، أمـا الحريـة فهـي شـأن عـام".

في الإقليم التاسع

إنهـم بوهيميـون يحبـون الحيـاة، ويعشـقون الحريـة المفقـودة، ويعزفـون موسـيقى خاصـة، ويتداولـون فيـما بينهـم لغة مشـابهة للغة المـوج، صـوت طقـات أسـنانهم موسـيقى، صـوت أجسـادهم حـين تزحـف عـلى الرمـال موسـيقى، همهـمات الصيادين.. صراخهـم.. خريـر المـاء حـين يتدفـق مـن باطـن الأرض القاحلـة.. كل ذلـك يلهمهـم الموسـيقى.

لا يربطهم إعلان جماعي، وإنما جاؤوا إلى هنا من الأقاليم كافة، واحترف بعضهم الصيد والبعض الآخر الرعي، وما بين ثغاء الأغنام وهدير الموج عاشوا متآلفين.. آلاتهم بدائية إلى حد كبير، ورغم ذلك فقد أنتجوا موسيقى راقية، يسيل منها العرق والصبر والازدهار.

ديموقراطيون إلى حد بعيد، رغم أنهم نشؤوا في أجواء استبدادية، يحترمون الولع بالمجهول والشوق اللانهائي، ويجيدون الحب مع أنهم لم يُوَفَّقوا في علاقات طبيعية، حديثًا وخلال العقد الأخير استطاعوا إقامة حفلات جماعية، استثمروا فيها مواهبهم، وربحوا الدور الفاعل في الأرواح، وأستاذية النفوس العطشى.

دخن الموسيقيون الرُحَّل هؤلاء التبغ والحشيش، وأدمنوا تدمير صحتهم يومًا بعد يوم؛ فمات بعضهم في سن مبكرة وفجأة، فأثار ذلك مخاوف لدى جمهورهم من جدوى تأليف موسيقى تُحَفِّز على الموت المبكر، وتحول كثير من الموسيقيين الرحل الآخرين إلى الالتزام الديني، وعزفوا مقطوعات صوفية وأخرى وطنية، واحتفظوا بجمهور كبير.

بتلك الموسيقى أصبح لدى الجهنميين رصيد من الفن الراقي والمنحط، ولكل جمهوره الذي يحرص على متابعة

الإنتاج الجديد من كلٍّ، خلال الحفلات الجماعية وعبر مؤتمرات الموسيقى في أقاليم الساحل، التي يزدهر فيها الموسيقيون الرحل.

لم يعرض أولئك الفنانون على الجمهور اتباع نهج احتجاجي، وإنما كانوا هادئين وصاخبين في حدود التأثير النفسي والانفعالي، بين مد وجذر وهدير وخرير وشروق وغروب، حتى عصف بالنفوس أمل كبير في تغيير الواقع وانتهاء الطغيان.

في الإقليم العاشر

على جدران المنازل برزت في هذا الإقليم ظاهرة غريبة؛ حيث فوجئ السكان في صباح أحد الأيام برسوم ولوحات شديدة الغرابة، توحي بأن راسمها يريد إيصال رسالة ما إلى جمهور الناس، لم تحمل اللوحات توقيعًا، وظن الجميع أن الظاهرة ستختفي، لكن لم يحدث ذلك؛ فقد اجتذبت اللوحات انتباه المراهقين والشباب، وأوْلوْها اهتمامًا متزايدًا بوصفها تعبر عن خيال جامح وألوان متميزة، وأفكار غاية في النضوج.

لم يتوقف الرسام المجهول عن رسم اللوحات، بل انتقلت ظاهرته إلى الأقاليم الأخرى؛ بحيث أصبح واضحًا أنه كوَّن مدرسة من فنانين طامحين إلى تغيير الواقع، وتدريجيًّا كُتِبَت أعلى اللوحات عناوين جذابة، وحملت توقيعات متباينة، وأُجْرِيَت دراسات داخل مدراس الفن العليا في الجامعات الحكومية عن تلك الظاهرة، خَلُصَتْ إلى حقيقة وجود مرحلة من الفن الجديد لا يطمح رساموها إلى الشهرة؛ فالتوقيعات هي بأسماء مستعارة.

عارف بن عليم ليس موهوبًا في الرسم، ولكنه يحب الفن، فحرص على متابعة رسوم تلك المرحلة، واعتبرها نقطة تحول في الفكر الجهنمي، وخصوصًا بعد أن تطورت إلى كاريكاتير ساخر، ينافس على شغل فراغ كبير في حياة الفقراء والمنبوذين.

مضت الأيام، ولم يُعرَف إلى الآن من ذلك الفنان الموهوب المجهول، وظل سرًّا نغَّص حياة رجال الأمن، خاصة لما شاب اللوحات في كثير من الأحيان من غموض، وما أثار من تصورات حول جدوى الحياة في مجتمع مغلق وفقير وفاسد.

في الإقليم الحادي عشر

ظهر في الإقليم الحادي عشر شاب قوى البنيان له شكيمة وبأس، وضع أساسا لكثير من الألعاب القتالية، وصمم على تعليم الكثير من أبناء مملكة جهنم تلك الألعاب، لا تعود أصول ذلك الشاب إلى مملكة جهنم بشكل بحت، بل إنها تعود في بعض جهاتها إلى أصول أجنبية.. وقد اشتهر ذلك الشاب شهرة واسعة، هذا الشاب كان يدعى "شجاعًا".

لم تكن الخلافات بين المدارس القتالية خارج مملكة جهنم بمنأى عن شجاع؛ فتعايش معها وصمم على تجاوزها إلى آفاق أرحب، تعلم عارف الألعاب القتالية من شجاع، وصار رشيقا وقويا ومتين العضلات ولائقا بدنيًّا إلى أمد بعيد، حيث إن الأخير طوَّر من أدائه الشخصي، ثم أدخل تعديلات على كل المدارس القتالية؛ فجاءت ضرباته حادَّةً ومركَّزةً وقويةً ومتفردةً.

استفاد عارف منه استفادة كبيرة، واستطاع في مدة بسيطة أن يبسط سيطرته على عدد لا يحصى من شباب الرياضيين الذين يهوون الألعاب القتالية، هذا التعليم وتلك التربية القتالية جعلت عارفًا في مصافِّ الشباب المتطور رياضيًّا، كما جعلا له

مكانـة ومنزلـة راقيـة في نفـوس زملائـه وشـباب الأقاليـم جميعًـا، خصوصًـا بعـد أن شـارك في بطـولات كثـيرة عـلى مسـتوى المملكـة.

كانـت تلـك المرحلـة وذلـك المعلـم ضمـن مـا أراد عـارف أن يتخطـاه عـلى مسـتوى تطويـر الـذات، ولم تتـمَّ فرحتـه؛ إذ إن معلمـه لقـي ربـه شـابًّا، بعـد صراع بـين قـادة المـدارس حـول أحقية شـجاع في نـشر الألعـاب القتاليـة شـديدة السريـة بـين أبنـاء مملكـة جهنـم أو غيرهـا..

كان شـجاعٌ قويًّـا، وظـل قويًّـا حتـى في موتـه، وتـرك بصمـة في جسـد تلميـذه وعقلـه لا تُمحَـى.

في الإقليم الثاني عشر

جامعـة كبـيرة جمعـت عنـد المصـب بـين النهـر والبحـر، أنشـئت بتبرعـات أهليـة، ووفـرت منحًـا دراسـية لغـير القادريـن، ومـع أنهـا تقـع تحـت إشراف حكومـي فقـد وفـرت مناهـج دراسـية غريبـة نوعًـا مـا؛ لغـات ميتـة لا يتكلمهـا لا الجهنميـون ولا جيرانهـم مـن الجـزر الأخـرى، ولم يسـمعوا بهـا مـن الأجانـب الذيـن حطـوا

رحالهم في الجزيرة – وا أسفاه – بحثًا عن واقع يختلف عن ظروفهم القاسية في بلدانهم المهجورة.

رئيس الجامعة يدعى "الترجمان"، وهو كائن بشري مهووس بتعلم اللغات الحية والميتة وتعليمها، يجيد أكثر من ست عشرة لغة، ويعيش في سكن متواضع إلى جوار جامعته، تخرج منذ مدة قصيرة، ولكن نتيجة عبقريته وشغفه ودعم المجتمع له.. ترقَّى في مدد متقاربة، ونجح في الوصول إلى قمة الهرم الوظيفي وهو لم يتخطَّ الخامسة والثلاثين.

حصل عارف على منحة دراسية مجانية، استطاع بموجبها الدخول إلى الجامعة هنا، وتعلم أكثر من لغة لم يسمع بها من قبل، وقيل له: إنها تصلح فقط لحياة المغامرة.. استطاع أيضًا أن يتقن إلى جانبها لغات حية يتكلم بها جيران جهنم، بدءًا من الجزر الضعيفة وانتهاءً بالقوى الاستعمارية.

في أجواء غامضة دخلت العبرية إلى الجامعة، وقام على تدريسها عدد من الأساتذة المُقرَّبين من القصر، وازدادت الأمور سوءًا بعد فرض شعائر دينية وثقافية على الطلاب المنتسبين إلى الجامعة؛ منها: زيارة المعابد، وتشجيعهم على التحدث بالعبرية في المحافل العامة، وكتابة أدب شعري ونثري بها، وفور رفض بعض الطلاب ذلك فصلوا من الجامعة بقرار سيادي، وكان ضمنهم عارف.

في الأقاليم السبعة

كونها ساحلية فهذا وحده لا يكفي.. كونها ساحرة الجمال فهذا – أيضًا – ليس السبب الرئيس، ولكن لأن المحتلين دشنوا في بلدانهم لثورة صناعية عمادها زيت الصخر، وأيقنوا بعد بحث أن تلك الأقاليم تعوم فوق بحر من ذلك الزيت؛ لذا كان من الضروري غزوها.

كان ذلك سهلًا؛ لأنها بدائية، وحكامها نجس طماعون يسهل استمالتهم، كما أنهم سيكونون المطارق التي تدق رؤوس المقاومة، فلا حاجة لبذل الكثير من الأنفس والأموال لاحتلالها، وحسب دراسة أجرتها قوى استعمارية فإن الجهنميين في تلك الأقاليم السبعة ينقصهم الكثير، ليكونوا حائطًا منيعًا يحافظ على الكرامة والأرض والدين، فهم طوائف شتى؛ منهم الأجانب النازحون والسكان المحليون، منهم الشيعة والسنة، منهم الصوفية والمنحلون، وهذا يجعل الخلاف بينهم عاملًا رئيسًا في تحقيق النصر.

لم يوجه المستعمرون تهديدًا لا للملك ولا للشعب، بل رست سفنهم الحربية فجأة مع دخول القمر في المحاق على شواطئ الأقاليم السبعة، وهاجموا النقاط العسكرية، ومواقع قيادة الجيش، وباغتوا المواطنين العزل في بيوتهم.

عندما أشرقت شمس الصباح، كان قد خيم على البلاد عهد بغيض، محا معه الكرامة والسيادة، ورغم قسوته فإنه لم يكن بقدر قسوة عمالة النخبة له، إن عدد الجنود والبحارة، الذين أحدثوا ذلك الزلزال بأسلحة متطورة نسبيًّا لم يتخط المئات في كل إقليم، ولكن أمراء الأقاليم عقدوا في الظلام حلفًا مع المستعمر، بموجبه يظل الأمراء في مراكزهم، ويجبرون هم بدورهم – كما فعلوا منذ القدم – السكان على قبول الأمر الواقع، وتسليم الثروات التي ترقد في باطن أرضهم إلى السادة الجدد.

لم يرق هذا بطبيعة الحال لعموم الشعب؛ فنشط العلماء والمجاهدون في مقاومة المحتل، وكونت كل فئة من فئات المجتمع أذرعًا عسكرية، لكنها كانت تفتقر إلى التنظيم الحديث، كما أن أسلحتها كانت ضعيفة، وأعدادها قليلة، وبمرور الزمن استطاع العملاء تصفية قادة المقاومة، وقبع في السجون عدد ليس بالقليل من المجاهدين، وأثر ذلك سلبًا على معنويات التيار الديني المحافظ في بقية أقاليم المملكة.

على امتداد الحدود مع الأقاليم المحتلة أقام المستعمرون جدارًا عازلًا، لا يسمح بمرور المساعدات ولا الأسلحة ولا المتطوعين، وزاد الطين بلة أن الملك الطاعن في السن – والذي يُسيِّر أمور مملكته بتوجيهات من الحاشية والنخبة – عقد اتفاقات سلام دائمة مع المستعمرين.

في العاصمة

ليس ما يقلق في العاصمة أنها تمثِّل مركز جهنم، أو أنها تضم القصور الملكية، التي تمثل مهد صناعة القرار فحسب، ولكنها تمثل أيقونة السحر لدى الأسرة المالكة، فإلى جوار مؤسسات الدولة انتظمت أحياء راقية، وامتدت إلى جوارها أحياء عشوائية، وطغت الفخامة على الأولى، وتمتع سكانها بكل الامتيازات التي يمكن أن يحظى بها سكان على مر التاريخ، كما لبست الأحياء العشوائية فيها ثياب القبح.

يسكن اليهود تلك الأحياء الراقية، بالإضافة إلى عدد لا بأس به من رجال المال والأعمال، الذين جمعوا ثروات ضخمة.. أصابتهم بالتخمة، فمن تجارة السلاح البدائي مع الجيش، ومرورًا بقطع الأخشاب، وليس انتهاءً بالقطاع الزراعي، كوَّن أولئك النفعيون أموالًا ناءت بحصرها المصارف التقليدية، فكنزوا الذهب والفضة، وأداروا عمليات مَكَّنتْهم من السيطرة على الحكم.

مهدت تلك العمليات لاقتطاع أجزاء كبيرة من الغابة للثراء على حسابها، وإزالة أجزاء أخرى من الأحياء الشعبية؛ لإقامة قصور ومبانٍ غير تقليدية تباع بأسعار خيالية، كما مكنهم رأس المال من التدخل في الحياة الدينية، فهدمت مساجد كانت

لها المكانة المقدسة والتاريخية؛ حيث بناها المسلمون الأوائل، وظلت مقصدًا لطلبة العلم الديني لمئات السنين، وذلك لصالح إقامة كيانات مقدسة كالمعابد لطوائف قليلة العدد، وازدهر الحي اليهودي حي المال والأعمال.

وفي إطار حربها على الدين أنشأت السلطة الجامعات النظامية، التي تشرف هي على وضع مناهجها واختيار أساتذتها، وبدأ الأمر مجانيًّا؛ فتخرج عدد لا بأس به في تلك الجامعات، وخدموا في الجهاز الإداري للدولة، وحدث صراع آخر داخل الهيئة المشرفة على التعليم الجامعي، بعد أن تسلل إلى مناصب الأستاذية طلاب لهم ميول دينية محافظة، ثم ازداد الأمر صعوبة على عامة الناس بعد أن تحول التعليم الجامعي النظامي من المجانية إلى المدفوع الأجر، ولم يعد بإمكان البسطاء من الجهنميين إلحاق أبنائهم بهذا النوع من التعليم، وتشتَّت بعض الطلاب – ومنهم عارف – بين أساتذة نظاميين ومعلمين بدائيين، ولم ينجح بذلك في الحصول على شهادة جامعية تؤهِّله لأن يكون موظفًا في سلك الحكومة، غير أنه بذل مجهودًا مع موهبته في الكتابة والتأريخ، وطوَّر نفسه حتى صار موضع إعجاب المحيطين به، وأهَّلتْه مهاراته التي اكتسبها تلك وثقافته الموسوعية ليكون كاتبًا من كتاب القصر.

في القصر الملكي الكبير

خلال عقود من ضعف الدولة وهزالها تناحرت الأقاليم فيما بينها لتعجيز بعضها البعض اقتصاديًّا، وتوجيه الضربات تلو الضربات، وكأنها كانت تتعمد ذلك لإضعاف المملكة، ولكن الغريب في الأمر أنها – أي المملكة – ظلت متماسكة، ونمت أرصدة حفنة من اللصوص والتافهين على حساب تلك الحرب الاقتصادية – والعلم عند الله – المُوَجَّهَةِ أو غير الموجهة.

سرعان ما تسلقت القرود البشرية على حساب غيرها، وانتشرت المحسوبيات، وبدأ ظهورها من داخل القصر الملكي ذاته؛ حيث عرف عن الملوك المتعاقبين المشكوك في تديُّنهم وخططهم للمستقبل أنهم أصحاب كروش واسعة، ولا يفتؤون يستمعون للطبالين الأكفاء.

أُهدرَت الطاقات، وتعاقبت الأجيال لترى القلة الممتازة تستحوذ على الأكثرية الاقتصادية، ولم يكن ذلك وليد الشعور بالرغبة في التملك فقط، بل إن هذه القلة سعت للسيطرة سياسيًّا على مقدرات الأمة، وما أثار السخط حتى على مستوى الأمين هو استئثار الطائفة اليهودية بالمال، وبالتالي أصبح لها دور في السياسة، ثم تعاظم نفوذها، بحيث فرضت

ثقافتها وفلسفتها على أغلبية الأقاليم فتحكمت أكثر في مراسم القصر الملكي، واستقبلت عنه الضيوف من جميع أنحاء العالم، حتى طُلبت إليهم الشفاعة وأُبْرِمَت بأسماء قادتهم التحالفات، وأصبح بأيديهم الثروة والنفوذ..

أكبَّ عارفٌ على علوم اللغة فوعاها، واستطاع أن يكون وهو في العشرينات من عمره كاتبًا لا يشق له غبار، وكان طبيعيًّا وقد تعلم كل هذا العلم، وتثقف كل هذه الثقافة، وخضع لكل هذا التدريب المتواصل أن يرى في نفسه الحق في اجتياز المسابقات للالتحاق بمعية الملك.

في القصر كان مولعًا باكتشاف الحقائق، وكلما ازداد شغفه في ذلك، زادت آلامه، فقد وجد الحاشية تسيطر على كل شيء، وسأل نفسه: لماذا لا يعلم الملك بكل هذا الفساد في قصره؟ ذاك الفساد الذي أصبح يضرب بأطنابه في كل ربوع المملكة، وكان سببًا في وقوع بعض أقاليم المملكة تحت الاحتلال الأجنبي، من جزر وممالك كانت تعيش حالة من البؤس، وهي التي بدأت متأخرة في إقامة مشروع حضاري، بدأته قبلها مملكة جهنم بعقود من الزمن.. رأى الراقصات يتلقَّفْنَ الأموال، وعامة الشعب تكدُّ وتتعب وتدفع الضرائب، ورغم ذلك فالخزائن خاوية.

لم يكن تنتون قبل دخوله القصر ملقبًا بهذا اللقب، وإنما كان يُنادَى باسمه الأصلي عارف بن عليم؛ فلما التحق بمعية الملك، ورأى رؤساؤه منه صدق النية وحسن الطوية وبراعة الكتاب الحاذقين، أطلقوا عليه "تنتون بن تنتن"، وهو وإن كان اسماً غريبًا على الآذان في بقية البلدان، فإنه هنا يعني الإخلاص والتفرد والحكمة.

ومضى تنتون في قصر الملك يدشِّن لمشروع نهضوي، ويلتقي بالمخلصين ممَّن عرفهم في قصر الملك وخارجه، قال لهم – وقد أخذته العَبرة: إن بلدنا غارقة حتى أذنيها في الفساد، ولا أعني بذلك الفساد الاجتماعي أو الإداري فقط، ولكن فسادًا مخيفًا، يعصف بالأحلام، ويقصر القامات، ويستلب المواهب، ويضع الحرية في مأزق، والصمود في آخر مراحله.. شعرت الحاشية بخطره على مستقبلهم في القصر، فأوعزوا إلى الملك بإقصائه.

ما جاء في إيفاد تنتون من قبل معلِّميه وأوامرهم له بالارتحال

كان إقصاء تنتون سببًا في تعاطف الناس معه ومعرفتهم به، فأصبح مشهورًا نسبيًّا بينهم، كونه واحدًا من أبناء الطبقة الدنيا، التي تشكل القاعدة الكبرى لسكان مملكة جهنم (كان تنتون ابن الطبقة الوسطى حتى ألَّمت الضوائق المالية بأبيه، فانحدر إلى أسفل السلم الاجتماعي إلى الطبقة الدنيا، فنشأ تنتون ضمن البروليتاريا أو الطبقة العاملة)، كما أنه تعلم في أقاليم المملكة جميعًا، وكان معلِّموه يمثِّلون قامات شعبية كبيرة، وكانوا السبب في حصوله على ثقة الشعب.

عاد تنتون بعد إقصائه من القصر يعمل بإخلاص في مهنة الكاتب بعيدًا عن حاشية الملك وأذاها وفسادها، حتى أتته الزواجل من معلميه، تأمره بالارتحال خارج مملكة جهنم للبحث عن حلول لما اعترى القصر والرعية من معضلات وفساد، كان هو نفسه أحد ضحاياه.

كان تعاطف الناس معه وإحساسهم بجدوى مشروعه النهضوي سببًا في ملاحقة الأجهزة الأمنية له؛ فجعل يفر من إقليم إلى إقليم، حتى أعياه التعب، وركبه اليأس، وقرر الرحيل عن مملكة التناتنة.

في ذكر بغلة الماء.. ذلك الكائن الخرافي

خلال استعداده للخروج أمضى تنتون الليالي الطوال متعبدًا متهجدًا، ولم يكن له من وسيلة للسفر والنجاة والاستكشاف، حتى رأى فيما يرى النائم خيالًا يطوف حول شواطئ المملكة، يهز الماء ويضطرب الموج تحت وطأته، وسمع هاتفًا ينادي: "هذا مركبك يا تنتون".

عند المغيب كان صاحبنا على الشاطئ، وعلى آخر شعاع للشمس رأى كائنًا خرافيًّا يشق الماء متجهًا نحوه، وخرج من الماء وزحف على الرمال والصخور، وكأنه في حلم.. كائن فيه كل معاني الأسطورية، سريع جدًّا له سنامان مثل جمل، ومرونة كدلفين، وأقدام قصيرة كتمساح، وعنق طويل كزرافة، وعينان كأجمل ما تكون البقرة الوحشية، وذيل قوي كسمكة قرش، كل هذا لم يكن عجيبًا بقدر المفاجأة التي أطلقها هذا الكائن من بين فكيه، فقد سالت على لسانه الكلمات كالفصحاء، وقال: أنا طوع أمرك يا سيدي.

كائن متفرد جعل الكلمات تتكسر على لسان تنتون، وعَقَدَتْه الدهشة فلم يتكلم إلا بعد وقت من الانبهار والتعجب:

- من أنت أيها الكائن الأسطوري؟

– أنا بغلة الماء، ليس لي أب أو أم أو شبيه.

– من أين تأتين؟

– من البحر المحيط.

– وهل يعلم بأمركِ أحد؟

– لا يعلم بأمري إلا المصلحون والرحالة المستكشفون.

– سبحان الله، وهل جئتِ لتخدميني خصيصًا؟

– جئت لأنقلك إلى الجهة الأخرى من المحيط، لترى العجب العجاب في جزر الأرخبيل المفتت.

قال تنتون مداعبًا: لكني أخاف أن أسقط في الماء فأغرق.. فهل من أمان لي على ظهرك؟

– نعم، وأنت لا تنقصك الشجاعة للمغامرة، وأنا أعلم أنك تلقيت تدريبًا خاصًّا في السباحة ضمن تلامذة معلمك العوام.

– ولكنِّي رجل أكتب وأدون، وأحمل معي كتبي ومخطوطاتي، وأنا إن نزلت الماء بها فسدت.

– هذا أمر يسير، هناك في أعلى سناميَّ ثقبان ينفتحان وينغلقان، فضع فيهما متاعك.

قال تنتون: إن هذا لأمر عجيب.

أمـضى أيامًـا، يراجـع فيهـا مـع بغلـة المـاء خريطـة الأرخبيـل المفتـت، حتـى وعاهـا عـن ظهـر قلـب، ووعدهـا أن يسـافر بهـا إلى تلـك الجـزر، التـي تحـوي العجيـب والمدهـش فيـما يبـدو..

الفصل الثاني
رحلة تنتــون بن تنتن

ستذهبُ
حيث لا أحدٌ
سيذهبْ..
ستمشي ثم تسقطُ
ثم تمشي
وتكتبُ
ثم تكتبُ
ثم تكتبْ..

أحمد بخيت

***

اعتــلى تنتــون بغلــة المــاء، ووضــع أوراقــه وأقلامــه ومتاعــه في ســناميْها، اللذيــن انغلقــا تلقائيًّــا، فتحركــت في المــاء رويــدًا رويــدًا، وجعلــت تــسرع شــيئًا فشــيئًا، وســطع مــن عينيهــا نــور أضــاء

المسافة الواصلة بين شواطئ الوطن والبوابات السوداء، التي انفتحت لتمر من خلالها.

ولم يُدرِ ظهره ليرى بعض معلِّميه البدائيين، وبعض أساتذته النظاميين، وعددًا من زملائه في القصر، وهم يودعونه، ودون أن يعلم أن أمرًا ما يدبر لصالحه، ضمن صفقات أمنية، خصوصًا مع دخول الملك نوبة مرض عضال، وقيام ولي العهد بأمور المملكة التي أصبحت مثل أبيه معتلة وضعيفة.

ذكر ما جاء في وصف الأرخبيل المفتت

كانت الجزيرة واحدة.. جزيرة ضخمة تمثل قارةً متوسطة، هادئة إلى حد كبير.. يمارس الناس فيها حياتهم كما يحلو للملك.. تشرق الشمس عليها كل صباح فتكوي تلك الظهور الكادحة، وتتسرب قطرات العرق على الأجساد.. وتمضي السنوات والملك ممسك بتلابيب الجزيرة.

لم يكن يتوقع هو أو جنوده أن زلزالًا كونيا من أعماق البحر الواسع الكبير سيدك أركان الجزيرة، ولكن أمر الإله الأعظم

قد نفذ، وتحولت إلى أرخبيل كبير، تتنوع أنشطته الزراعية والصناعية، بعد أن كان دولة موحدة.

وانقسم كل شيء تبعًا لانقسام الجزيرة؛ السحرة والسياسيون وسدنة الحكم والبرلمانيون، عرفوا طريقهم هم وأبناؤهم من بعدهم إلى قصور الملوك، ورغم تراجع نفوذهم في بعض أنحاء الأرخبيل فقد ظل تأثيرهم موجودًا، بل متطورًا وساديًّا في أنحاء أخرى.

عقب الزلزال تعرض الأرخبيل لهجوم من قبل كائنات فضائية لم يرها أحد من قبل، رمت بكتب ومخطوطات، ساهمت في ارتفاع وعي البعض، وتطور تراتبية الحكم، وظهور التمرد وانفصال الجزر بعضها عن بعض.

كان هجوم الفضائيين مباغتًا بحيث لم يكن أمام الملك الأول سوى الاستعانة بالسحرة، للحفاظ على وحدة الأرخبيل، فمضى هؤلاء صاعدين في القصر، وحصلوا على امتيازات كبيرة، وبالمقابل سُلِب المفكرون والمثقفون امتيازاتهم، وتحول الصراع إلى صراع وجود بين السحرة والمثقفين في كل الميادين.

تنوعت مشارب القوم فاتسع الخرق على الراقع، واستقلت كل جزيرة بنشاطها وأصبحت دولة صغيرة أو متوسطة الحجم أو كبيرة، كل ذلك والسحرة ظلوا يصمِّمون التعاويذ ويمارسون

الشعوذة، حتى في أعتى الجزر ثقافةً وعلماً، وطاردوا التقدُّميِّين والثوار والمتمردين، وورث عنهم أبناؤهم القدرة على التأثير في الرأي العام، ومارسوا سلطة وراثية موازية لسلطة الملوك والأمراء والسياسيين العباقرة منهم والحمقى.

جزيرة الموز

في بلد لا يحكم فيه القانون
يمضي فيه الناس إلى السجنِ
بمحض الصدفةْ
لا يوجد مستقبلْ

صلاح عبد الصبور

***

عندما انشطرت تلك الجزر إلى جزر صغيرة، قام في كل جزيرة منها نشاط زراعي مُعيَّن، النشاط الزراعي في أولى الجزر كان الموز، وتشير زراعة الموز فيها إلى عدة تفسيرات كهنوتية

وغيبيـة، أولهـا أن المـوز يشـير إلي السـعادة الدنيويـة مثلـما يشـير إلى السـعادة الأُخْرَوِيَّـة، وتتنـوَّع قيمـة المـوز مـن بيـت لبيـت عـلى حسـب التنـوع الثقـافي الموجـود في الجزيـرة.

نـزل تنتـون إلى جزيـرة المـوز بعـد عبـوره البحـر المظلـم، وقـد أخبرتـه بغلـة المـاء أنهـا سـتكون قريبـة منـه، كونـه لا يـزال قليـل الخـبرة بأحـوال الجـزر هنـا، وأن الوضـع الأمنـي فيهـا يشـكِّل خطـرًا عـلى الغربـاء أمثالـه.

بعـد سـاعات مـن تجولـه في الجزيـرة، لاحـظ أن هنـاك مـن يتبـع خطـاه، ورغـم أنـه قليـل الخـبرة بأحـوال البلـد فإنـه عـرف أن الـذي يتابعـه ليـس شرطيًّـا؛ لأنـه لم يسـتطع أن يخفـي أمـره كثـيرًا، انحـاز إلى بعـض الأبنيـة التاريخيـة، فتبعـه الشـخص نفسـه، فوجـد تنتـون في نفسـه الشـجاعة ليسـأله: إننـي أراك تتابعنـي منـذ وقـت ليـس بالقليـل.. فمـن أنـت ومـاذا تريـد؟

قـال الشـاب: يبـدو مـن هيئتـك أنـك لسـت مـن أبنـاء البـلاد، فعـن مـاذا تبحـث؟

قال تنتون: إنني أبحث عن مثقفين أو رجال دولة مؤهَّلين.

قال الشاب: لماذا؟

قـال تنتـون: أنـا أعمـل كاتبًـا، وأنـا في رحلـة، وأبحـث عمَّـن يسـاعدني في التأريـخ.

قال الشاب: على الخبير سقطت، سر خلفي.

سار تنتون خلف الشاب الذي أوصله إلى جمع من المَوْزِيِّين تحت عريش، يشبه كوخًا قديماً، وسرعان ما عرف أن هؤلاء هم خيرة شباب دولة الموز ومثقفيها، تعرف إليهم، وأظهر لهم من الاحترام ما هم جديرون بمثله، وأطلعهم على مهمته؛ فقال كبير القوم:

"إن الموز كان سببًا من أسباب الفساد الإداري في الجزيرة، فاعتماد البلاد الصغيرة عليه جعلته سببًا في انتشار الرشوة واستعلاء طائفة التصدير عليه؛ حيث صنع ذلك - والعلم لله – طبقة من التجار النزقين الطماعين، الذين احتكروا بيع الموز إلى الجزر الأخرى".

واستطرد قائلاً: "وطبقًا لاتفاقية ناتجة عن الصراع الذي نشأ مع تفسُّخ الجزيرة الكبيرة إلى جزر صغيرة، وتفسخ أنشطة الاقتصاد الزراعي الذي قامت عليه الجزيرة الأولى سلطانًا وقوة وسحرًا، بعد انتشار الرشوة و ما جلبته علي الجزيرة من الفساد الإداري، أصبح الأمر غير قاصر على ما يتعلق بالموز وبيعه وتصديره، وإنما نمتْ لدى الجميع الرغبة العارمة في معرفة السر في ضياع الميزانيات الموجهة لصالح دعم الطرق، والمصارف، والترع، والنهر الصغير الذي ينبع من جبل القمر،

الـذي يوجـد لـه شـبيه في أغلـب الجـزر، ويجلـب المـاء دون أن يعرف أحـد مـن أيـن يـأتي، المهـم أن أغلـب الميزانيـة أصبـح يذهـب هـدرًا، كـما تهـرب الميـاه في المحيـط الكبـير".

عقـب آخـر قائـلًا: "جزيرتنـا جزيـرة المـوز حزينـة؛ لأنهـا تعـرف السـبب الرئيـس في ضيـاع الميزانيـة عـلى ثلاثـة أوجـه؛ إمَّـا أن الملـك المعظـم نفسـه هـو الـذي يكـذب عـلى الشـعب، وإمـا أن السـحرة يمارسـون نفوذهـم عـلى الجميـع بحجـة حفاظهـم عـلى الجـزر الباقية دون أن تنشـطر هـي الأخـرى، وإما أن السياسـيين وسـدنة القصر هم أيضًـا يفعلـون الاثنين معا، يمارسـون نفوذهم ويكذبون على الشـعب.

تمـر جزيرتنـا بـما لا ينبغـي أن تمـر بـه جزيـرة في العـالم، فهنـاك فيضانـات تعبـث فيهـا صيفًـا، وتنهمـر الأمطـار عـلى المنـازل فتسـقطها مـن عـلٍ، تلـك المنـازل التـي بنيـت عـلى قواعـد متحركـة تتهـاوى عقـب الـزلازل والفيضانـات والأمطـار الغزيـرة.

نحـن شـعب يعيـش مأسـاة لم تبـدأ مـع أول قطـرة مـاء نزلـت مـن السـماء، وإنـما مـع أول نقطـة سـوداء تفشـت في قلـوب الرجـال الذيـن ملؤوهـا بالطمـع، والغـش والتدليـس، والكراهيـة، نحـن ذريـة لرجـال عاشـوا زمـن السـحر القديـم، وزمـن الوحـدة، نحـن ذريـة لرجـال قامـت عـلى قاماتهـم حضـارة عريقـة، لكنهـا توزَّعـت عـلى مرمـى البـصر مثـل الحجـارة الصغـيرة عـلى شـواطئ الجـزر".

قال كبير القوم: "الأمر لم يعد يحتمل المناقشة، فكلنا يتوه في معمعة الكراهية التي جلبتها الخرافة، وأول بذرة للعنف الداخلي المبطن.. الصراع من أجل الثراء لا من أجل العيش، والصراع من أجل النفوذ لا الأمان".

استشعرت قوة أمنية سرية في جزيرة الموز اجتماعًا هادئًا بين غريب و ذوي الألسنة الطويلة، فداهمت مقر الاجتماع، وفي الوقت نفسه استشعر كبير المثقفين خطرًا عليهم وعلى تنتون ففض الاجتماع على الفور، وألبسه زي شحاذ.

في وسط الطريق تعرض للانكشاف، فليس هو بمن يعرف صفة الشحاذين في جزيرة الموز، ولا أسلوبهم في الشحاذة، فقال في نفسه: لِمَ لا أنادي علي نفسي فيعطونني؟! فجعل يغمز بعينه تلك مرة وعينه الأخرى مرة، وارتفع صوته قلقًا بشعر حر:

أنا الشحاذ المُتَغَنْدِر

أرمي بالسحر كي أبصر

لا أعرف شيئا أو لا شيء يعرفني

خطواتي في الظلمة محسوبة

أشواقي للمأكل مشبوبة

فأنا الشحاذ المتغندر

شكَّت قوات الأمن المتناثرة في الشوارع في شخصية الشحاذ المختلفة شكلًا ومضمونًا عن شحاذي جزيرة الموز، فبدأت تطارده، وطبقا لحيلة فطرية فيه وفي الناس بدؤوا يجرون في الشوارع هم وتنتون، وكلما مروا بقوة أمنية حذَّروها من انقلاب وشيك على ولي العهد، يقوده ضالعون في القصر ونخبة من السحرة وأبنائهم، ونخبة من سدنة الحكم وبقية من عامة الشعب.

وتناثرت الأنباء بعد انتشار الفوضى عن غياب الملك عن الجزيرة، وابتعاده عن مصدر القلق، ولكن التمائم بدأت تُفقد، واحدة بعد أخرى، ثم إن القوم استشاطوا غضبًا عقب توعية مفاجئة من المثقفين بضرورة الحفاظ على وحدة الجزيرة، وفي الليل بدأ الناس يشعرون على أضواء الشموع بحركة أرضية مُزَلْزِلَة (تقع بعض جزر الأرخبيل المفتت – ومنها جزيرة الموز – ضمن نطق زلزالية، واستطاع السحرة أن يوهموا الناس بأن أي حركة ضد القصر الملكي سوف تفتِّت الجزر إلى قطع أصغر)، وبدأت الجزيرة تتفتت، وفي الصباح رأى القوم عند حدود الانكسار الأرضي مياه المحيط تتدفق إلى قلب الجزيرة، معلنة انقسام الجزيرة إلى جزر أقل حجماً وأدنى قيمة.

ازدادت الأمور سوءًا، ونبعَتْ أمام قدمي تنتون أحد الشقوق التي تسربت منها المياه، وعلى أضواء البرق الذي

يهز القلوب ويخطف الأبصار رأى بغلة الماء سابحة بالقرب منه؛ فلما أبصر رأسها ترتفع من الماء رويدا رويدا قفز فوق ظهرها:

- ما رأيك يا سيد الرجال في جزيرة الموز؟

- إن ما يراه بصري ويسجله عقلي وتحويه ذاكرتي لهو كثير، ولكن الحكم على ما رأيته لا يخرج من شيئين؛ إما أن الأمم تغرق بسبب فساد أهلها، أو فساد تربتها، وإن الشهادة بفساد تربتها لهو ظلم بين وواضح للتربة.

- وما حملك على السماع وقد لاحظت ملامح الفساد بينهم؟

- إن في حياة الناس صلاحهم وفسادهم أمورًا تستحق النظر والتأمل، كما أنني لم أستمع سوى للمثقفين.

قالت البغلة: (وقد بدا عليها الاستغراب وكثير التصديق): أين تريد الذهاب يا سيدي؟

قال تنتون: إلى جزيرة الفراولة.

جزيرة الفراولة

"عندما تتوقَّفون عن التفكير بأنفسكم كعبيد
سيستحيل على أي شخصٍ أن يستعبدكم".

المهاتما غاندي

رمت بغلة الماء بتنتون إلى اليابسة، استشعر للوهلة الأولى أن الجزيرة جزيرة الفراولة؛ إذ إن عدد سكانها وهيئتهم توحي بذلك.. يرتدون ثيابًا حمراء وقبعاتٍ خضراء، وتتنفس البلاد كلها هواءً معتدلًا، حين أوى إلى ظل شجرة من الأمطار الغزيرة المتساقطة علم أنه قليل الدراية، وتدارك ذلك وأوى إلى أقرب بيت خشبي خيمي الشكل.

قرع الباب فاستقبله صاحب البيت، وحياه قائلا: مرحبا سيدي، فعلم منذ تلك اللحظة كم هم طيبون أولئك الفراوليون، يتضح من محياهم وطريقة استقبالهم: كم هم طيبون وضالعون في شؤون الزراعة، السحرة والوزراء والجميع يعلم ذلك، ولذلك فإن أوضاع جزيرة الفراولة مستقرة نسبيًّا، الملك يطبق نظامًا شيوعيًّا مثاليًّا.

السحرة وأبناؤهم وأحفادهم يفعلون هنا كما يفعلون في كل الجزر، يصنعون التمائم والتعاويذ ويحافظون على عقد الجزيرة جزيرة الفراولة من الانفراط؛ إذ – وحسب نبوءة أحد السحرة

أو المؤمنين - فإن الجزيرة ستفقد وحدتها عقب تذمر وتجمهر كبيرين خطيرين من العمال الزراعيين على أوضاع الجزيرة، التي لا يحصلون على شيء منها سوى البيوت الخشبية المتواضعة، والفتاتِ، والعرق الصبَّاب ليل نهار، الذي تغسله الأمطار بين عرائش الحقول وأشجار الفراولة المتوسطة الحجم أو الصغيرة.

نما بين هذه الشجيرات وتربى جيل صغير من الفراوليِّين، كانوا متحابين للغاية، لم يكونوا متديِّنين بشكل كبير؛ إذ إنهم ليسوا محافظين على الصلاة إلى مدى بعيد، ولكن الأخطر من ذلك أنهم ورثوا من الملك ملكيته، فهم غير ديموقراطيين على الإطلاق، يكتبون ويقرؤون، بل إنهم قراء أكثر من كونهم كُتَّابًا، وهذا يجعلك تخافهم، حتى الملك نفسه أصبح يخافهم.

رويدًا رويدًا صعد عدد منهم إلى جبل القمر، وكونوا خلية، ظلت أمدًا بعيدًا بعيدة عن العمران، وكانوا في تلك المرحلة يتدرَّبون على القتال والتحمُّل، تحمل الظروف الجوية ومقاومة أعمال السحر، وظلوا على ذلك حتى استشعروا وجود غريب هناك في الأسفل عند المصب، وهناك جاء تنتونَ رسولٌ من تلك الخلية فأجاب على الفور.

حين كان يصعد جبل القمر، رأى المكتبات يمينًا ويسارًا، كل مقاتل صنع لنفسه مكتبة يجلس فيها بجوار مجرى النهر، حتى

تكـون تلـك المكتبـة معينـة لـه عـلى النشـاط الذهنـي في مراحـل الراحـة مـن التدريبـات.

"نحـن لسـنا طيبـين يـا سـيد تنتـون (قـال كبـير القـوم) نحـن نقـرأ، لسـنا سـاذجين لنتصـور العـالم بـدون القـراءة، قـراءة الكتـب وقـراءة الواقـع، قـراءة الكتـب تعنـي وجـود خـبرات حياتيـة مجموعـة في حيِّـزٍ صغـير، أمـا قـراءة الواقـع فلأجلهـا صعدنـا هنـا".

قـال تنتـون: اعـذروني مـا السـبب في انتقادكـم لأحاديـث الملـك وأسـلوب السـحرة، وطريقـة السياسـيين؟ قهقـه كبـير القـوم وقهقـه جنـوده مسـتنكرين، وقالـوا: سـيجيبك أصغرنـا حـول تلـك المعضلـة.

بـرز إلى منصـة الـكلام التـي هـي صخـرة كبـيرة شـاب نحيـف عينـاه تلمعـان ووجـه خطابـه إلى الجمـع الكبـير:

"أنـا أحْـدث القـوم سـنًّا وأصغرهـم عمـرًا وأقلهـم مقامًـا، ولكننـي أعـرف - كـما تعرفـون - حجـم المأسـاة التـي عاشـتها الجزيـرة:

أولًا: الملـك لا يعـبر عـن ثقافـة الشـعب، فقـد انفصـل منـذ كان وليًّـا للعهـد عـن ثقافتنـا، ولا يمكنـه فهـم طموحـات وتطلعـات الشـباب، ولا المثقفـين.

ثانيا: السحرة مستمكنون - بشعوذتهم واستمرارهم في صنع التمائم - من عقلية الشعب والأمة، ولا تجدهم بسبب ذلك سوى مستعدين لإيقاف دعم المثقفين لبرنامج التعليم وتطويره.. التعليم في جزيرة الفراولة سيِّئ، وأنا الواقف أمامكم الآن أحد ضحاياه، لا شيء في جزيرة الفراولة سيء إلا وراءه تعليم سيء، ومعذرة يا سيدي: هل تجد في بلادك تعليمًا عقيمًا مثل تعليمنا، إن تعليمنا يشبه الفراولة الحامضة، تلك الحموضة التي تترك في العقول بعض المبادئ التي تتردد، وكثيرًا من القواعد العقيمة التي تستمر في الكتب، حتى تتحول العقول كلها في جزيرتنا إلى إناء كبير مليءٍ بالخرافات والشعوذة، التي يشرف عليها مجموعة من السحرة والأفاقين.. ولْأعْطَك مثَلا على فهمنا للعلم في مدارس الفراولة:

س: من أين تأتي الأمطار أيها الطالب؟

ج: من جبل القمر حيث الأمطار غزيرة والمجرى عميق.

س: من أنت كي تحدد ذلك؟ الإجابة خاطئة.

(أنا كنت ذلك الطالب)

س: ومن يحدد ذلك يا سيدي؟

ج: إن من يحدد ذلك أيها الصغير إرادة مولانا الملك بدءًا، ثم مشورة السادة السحرة، ومن بعدهم سلطة البرلمان وشيوخنا

مـن السياسـيين. والإجابـة التـي توصلـت إليهـا: إن النهـر والمـاء والأمطـار وكل تلـك الخـيرات تنبـع تـارة بـين فكـي الملـك مولانـا المعظـم، ثـم مـن تحـت ضفائـر مـولاتي الملكـة، ومـن ثيـاب سـادتنا السـحرة، ورجـال البرلمـان.

صفَّـق الحـاضرون الذيـن مـلأ وجوههـم الحـزن للشـاب الصغـير، وفي تلـك اللحظـة نظـر تنتـون إلى أسـفل الجبـل فـرأى عـلى شـاطئ النهـر شـابًّا آخـر صاعـدًا باتجـاه أعـلى الجبـل، ودون أن يحيـي الحاضريـن صرخ بأعـلى صوتـه: إن جيـش الملـك في طريقـه إلى أعـلى الجبـل متجهًـا إلى هنـا لقتالكـم، فثـارت حَمِيَّـة الجالسـين، وأمرهـم الكبـير أن ينتظمـوا في صفـوف، ووجـه رجـاءه إلى تنتـون أن يختبـئ أو يدبـر أمـره فيهـرب.

نـزل تنتـون مسرعًـا عـلى حافـة النهـر، وكان مـن حسـن ظنـه أن جيـش الملـك يـسرع الخطى مـن خلـف الجبـل في الاتجاه الآخـر الذي ليـس بـه مجـرى النهـر؛ فهـرب إلى الشـاطئ الـذي رمتـه عليـه بغلـة المـاء، ونظـر تنتـون إلى الخلـف فوجـد السـحرة مـن بعيـد مشـتركين في القتـال مـع الجيـش، وبـدؤوا يُقتلـون واحـدًا تلـو الأخـر، لظنهـم أن وجودهـم في أي مـكان سـتحميه تلـك التمائـم والتعويـذات.

وبـدأت التمائـم والتعويـذات تنشـطر وتتقطـع، وصرخ أبنـاء الجزيـرة: إن الجزيـرة ستنشـطر إلى جزائـر صغـيرة في المحيـط، وحينها

كان تنتـون يعتـلي بغلـة المـاء؛ ليهـرب مـن فاجعـة تنتظـر الجزيـرة نتيجـة الـصراع بـين المثقفـين والمشـعوذين.

جزيرة الأناناس

"وعـاظ السـلاطين يتركـون الطغـاة يفعلـون مـا يشـاؤون، ويصبـون جـل اهتمامهـم عـلى الفقـراء؛ فيبحثـون عن زلاتهـم، وينذرونهـم بالويـل والثبور"

علي الوردي

***

هبـط تنتـون إلى جزيـرة الأنانـاس فوجـد شـعبها مشـغولاً باحتفـال، هـذا الاحتفـال مضمونـه و جوهـره هـو زيـادة تعظيـم النـاس لمولانـا الملـك المعظـم – أدام الله ظلـه، فتنكَّـب تنتـون طريـق الاحتفـال إلى البيوتـات الصغـيرة إلى جانـب أرض الاحتفـال.

وضـع يـده عـلي سر الاحتفـال، الـذي لم يجـده في الجزيرتـين السـابقتين جزيـرة المـوز وجزيـرة الفراولـة، رأى النـاس مغلوبـين عـلى أمرهـم، فبالرغـم مـن ارتفـاع أسـعار الأنانـاس فـإن النـاس

فقـراء، ولذلـك فإنهـم سـارعوا إلى الملـك بالشـكوى، وهنـا تغيـظ عليهـم السـحرة والسياسـيون، وأمـروا بإقامـة احتفـال لتعظيـم مولانـا الملـك.

حـين علـم الفقـراء بوجـود غريـب بينهـم، وحـين اطمأنـوا إليـه اجتمعـوا معـه، وسـألوه: مـا الـذي جـاء بـك يـا سـيد تنتـون؟

قـال: لا شيء سـوى مـا جـاء بي وبكـم إلى هـذه الحيـاة، القـدر والمصـير.

قالـوا: كـما تـرى، فـإن مصيرنـا البـؤس والشـقاء، ومـا يزيـد بؤسـنا وشـقاءنا أن أرضنـا التـي نزرعهـا بأشـجار الأنانـاس غاليـة الثمـن لا تـدِرُّ علينـا شـيئًا، فالسـحرة يمنعوننـا بمجـرد مجـيء الحصـاد مـن التقـاط واحـدة مـن الأنانـاس، حتـى أطفالنـا لا يعرفـون طعمـه.

قال: وما السبب؟

قالـوا: إن السـحرة يحاولـون إقناعنـا بـأن مـا يأخـذه الملـك هـو للحفـاظ عـلى حياتنـا، فهـو يغـذِّي بهـذا الأنانـاس أجسـاد حراسـه وحـراس الجزيـرة، حتـى لا يحـدث هجـوم عليهـا مـن الجـزر الأخـرى، وأنـت كـما تـرى لا شيء سـوى نعمـة الأمـن.. "عـاش مولانـا الملـك" (هتـاف جماعـي).

لم يكن في جزيرة الأناناس كثير أمر سوى ذلك الاحتفال، ولذلك غادرها تنتون سريعًا إلى البحر؛ حيث الشاطئ الذي نزل منه، وهناك سألته بغلة الماء:

- يا سيدي، هل يحتاج الملك إلى احتفال ليعكس قوته وجبروته؟

أجاب: لا، ولكن يحتاج إلى احتفال ليزيد من مسؤولياته (هههههه قهقه تنتون).. يا بغلة الماء إن الملك يحتاج إلى شيئين يوميًّا: كثير من الإيرادات وكثير من الشعور بالعظمة، فأما مزيد الإيرادات فيوفره له الأناناس الغالي الثمن، وأما مزيد الشعور بالعظمة؛ فها أنت ترَيْنه يتصرف على نحو صحيح، بأن يقيم احتفالًا معاكسًا لرغبة المحكومين في التواضع واليسر في المعيشة، إن الأناناسيِّين هم أكثر الجزر الثلاثة بؤسًا حتى الآن.. الموز والفراولة والأناناس.

جزيرة الجوافة

"لا تدع الله في سرك حتى لا يسمعك السافاك"

مثل إيراني

***

سبحت بغلة الماء بسيدها سبحة، وقفزت به كما تقفز الدلافين، ورمت به على شاطئ جزيرة الجوافة، وهناك قال تنتون: لِمَ رميتِ بي هاهنا يا بغلة الماء؟

– لا شيء يا سيدي سوى أنه طرأ في عقلي، وأنا – حيث تعلم – عاقلة.. أن جزيرة الأناناس لم تفدك في قليل أو كثير، فربما تفيدك جزيرة الجوافة.

– ولماذا اخترتِها من بين كل تلك الجزر؟ وقد يكون في غيرها لما في صدري وعقلي شفاء!

– لكن جزيرة الجوافة تتميز بالكثير.

– وما الذي تتميز به؟

– طيب رائحتها الشهية، واستقلال أهلها عن البرية، فهي ليست مثل غيرها من الجزر متقاربة، وإنما هي في البعيد كما تري مرمية.

نـزل تنتـون إلى أرض جزيـرة الجوافـة، وشـم رائحتهـا القويـة فأخـذ يجـري بعيـدا بعيـدًا حتـى صـادف وسـط أشـجارها بيتًـا صغـيرًا، فطـرق البـاب فلـم يجـب أحـد، وحـاول مـرة بعـد أخـرى حتـى أيـس مـن أن يفتـح لـه، وحـين أدار ظهـره لينـصرف، فجـأة فتحـت البـاب عجـوز طاعنـة في السـن فحيتـه في توجـس، وأدخلتـه وأكرمـت ضيافتـه.

قالـت بعـد أن اطمأنـت بـه: لمـاذا أتيـت إلى جزيـرة الجوافـة يـا ولـدي يبـدو أنـك غريـب؟ قـال: وهـل يسـأل الضيـف إلا بعـد أن يسـتريح؟

قالـت: سـامحني يـا بنـي، فأنـا كـما تـرى وحيـدة أسـكن بعيـدًا عـن مرمـى النظـر، وعـن حراسـة الحـراس والعسـس.

قـال: يـا أمَّـه، هـذا سـؤال لم يسـألني عنـه لا الموزيـون ولا الفراوليـون ولا الأناناسـيون، ولكـن أجيبـك عـن جـزء منـه، وسـأخبرك بـأن البـلاد التـي أسـكنها تعـاني مشـكلة مـا، تلـك المشـكلة تشـبه في بعضهـا مشـكلات الجـزر التـي زرتهـا.

قالـت العجـوز: وهـل تعتقـد أن جزيرتنـا جزيـرة الجوافـة بهـا بعـض الشـبه مـع الجـزر التـي زرتهـا؟ جزيرتنـا في فـوضى السـحر وفـوضى الاقتتـال الأهـلي.

تشنَّجت أعصاب تنتون حين سمع تلك الكلمات، أيقن أن هناك مشكلة عويصة تسيل منها الدماء في تلك الجزيرة، قال وقد علته قطرات ماء على جبهته: هل هناك مانع يا سيدتي أن أستريح لليلة واحدة وفي الصباح نكمل حديثنا؟

قالت: علي الرحب والسعة.

استيقظ تنتون على صوت جلبة علي باب العجوز، وسمع متحدثًا يبدو من كلامه أنه يشغل منصبًا رسميًّا: نحن نبحث عن جسم متحرك هبط الجزيرة ليلة أمس، واستماتت العجوز في نفي الأمر، وغادر المتحدث المكان.

علم تنتون لاحقا أن المنطقة التي تعيش بها العجوز هي تابعة لأحد أولياء العهد الثلاثة، وفهم مؤخرًا أن الجزيرة تدور تحت رحى صراع على السلطة، وصراع على النفوذ، وصراع على المناصب؛ صراع على السلطة بين أبناء الملك الذي اضطر لتقسيم السلطات بين أبنائه الثلاثة الذين ينتمون لثلاث أمهات مختلفات، وصراع على النفوذ بين السحرة الذين اضطروا إلى دخول حلبة الصراع، الذي أوردهم إياه صراع أولياء العهد الثلاثة على السلطة، كما أن حلقة الصراع على المناصب أدرجت السياسيين فيها، وصار تقسيم الموارد العامة للدولة يخضع لأسلوب شديد التعقيد، وفي البداية – كما في الوسط، وكما في

النهايــة – ســقط الكثــير مــن القتــلى والمتصارعــين عــلى الســلطة، لكــن جهــازًا أمنيًّــا شــديد القســوة نجــح في الســيطرة عــلى الموقــف.

وبــات معروفًــا مــا فعلــه الجهــاز الأمنــي شــديد البــأس ليحبــط الفــوضى، وتصبَّــب رأس الســيدة العجــوز عرقًــا وهــي تــروي لتنتــون مــا حــدث بالضبــط..

تقــول: في ليلــة في أول الشــهر القمــري، هوجمــت بيــوت تابعــة لمتمرديــن ينتمــون إلى حركــة مناوئــة وانفصاليــة عــن الجزيــرة، وصعــدت مجموعــة مــن القــوات الخاصــة وذبحــت رؤوس الفتنــة في أعــلى جبــل القمــر، وقــد غــدا جبــل القمــر منــذ بــدء الفــوضى موئــلاً وملجــأً لأولئــك الخارجــين عــلى الدولــة والقانــون.

علــماً يــا بنــيّ أن الخارجــين عــلي الدولــة والقانــون لم يكونــوا ســوى مجموعــة مــن الشــخوص السـذَّج الطيبــين، الذيــن كانــوا لعبــة في أيــدي الجهــات الكــبرى المتصارعــة عــلى الســلطة، والذيــن تصالحــوا فيــما بعــد، وتركــوا أذرعهــم الطيبــة المكونــة للميليشــيات والحــركات الانفصاليــة تقــع في يــد الجهــاز الأمنــي، الــذي صرع بعضهــم وســجن بعضهــم، وحكــم عــلي الآخريــن إمــا بالإعــدام، أو خفَّــف الأحــكام إلى الســجن المؤبــد أو العمــل بنظــام الســخرة في مــزارع الجوافــة.

لم يستغنِ أولئك الرجال الطيبون عمن خذلوهم بالأمس، وإنما عملوا لديهم بصاصين ومخبرين ليحقنوا دماء المجموعة الباقية، حسب وجهة نظرهم، كما أن الجهاز الأمني لم يستغنِ عنه أحد؛ فقد استخدمه الملك لإعادة السيطرة على المثقفينَ وثعالب السياسة والجهاز الأمني نفسه.

توزعت البلاد إلى ثلاث شيع، وتقاسم الجميع السلطة الشكلية، فقد صارت القرارات تنبع مرة من الملك، ومرة أخرى من بين أذرع الجهاز الأمني المبثوثة في المؤسسات الكبرى سياسية وغير سياسية.

وحتى الآن لم ينتهِ وضع الجزيرة الواقعة تحت بنود قانون استثنائي، يتيح للجهاز الأمني تعقب بل وقتل أولئك الطيبين، الذين يفكِّرون في مصير موارد الدولة أو مصائر الأشخاص الذين يتعرضون للاختفاء القسري، أو توجد جثثهم مقطعة في النهر.

الغرباء أيضًا يعاملون هنا معاملة سيئة للغاية؛ فهناك اضطراب دائم في علاقة الجزيرة بغيرها من الجزر التي انشطرت بفعل زلزال عنيف، وتحولت العلاقة من الثقة في أبناء عمومتنا في الجزر الأخرى، إلى الانسلاخ والضياع.

تسوء العلاقة أكثر مع بدء الحصاد والتسويق؛ حيث تسعى كل الجزر التي كانت متآخيةً في وقت من الأوقات إلى الصراع

الاقتصادي، بل وتصدر عن جزيرتنا والجزر الأخرى أعمال عدائية من شأنها إلقاء النيران على السفن المحملة بالسلع التجارية، التي يكون لها فيما بعد تأثيرات اقتصادية شديدة الخطورة.

يفلت بعض أهالي الجزر ويسبحون في الماء بغرض الهجرة لأسباب سابقة الذكر، ومنها الاضطهاد الأمني الذي يسعى لإزالة جذور المثقفين من المجتمع، والمتدينون كذلك عادة لا يجدون مفرًّا من الاضطهاد سوى أن يرموا بأنفسهم في المحيط الواسع الكبير، علَّهم يجدون مكانًا أربح لعقائدهم، وسواء أكانوا متطرفين أم معتدلين فلا مكان لهم هنا.

جزيرة التين

ثمة رجالٌ قادمون من الأودية
ثمة سفنٌ طويلة ترقد أمام الساحل
وهم يحملون مشعلًا
في ظلمة الليل
وكأنه همسةٌ في الريح:
"ثورة"!

أغنية الثورة

كريس دو بيرج

***

لما وجد تنتون الأمور تتعقد ذهب بسرعة إلى الشاطئ، وكانت بغلة الماء في انتظاره، قفز فوق ظهرها، أراد أن يرى في عز النهار مأساة جزيرة الجوافة، وجد جثثًا يملأ محياها الهلع والذعر، ورأى أسماك القرش منهمكة في التهام بعضها.

لم تكن صدمة تنتون بالقليلة في جزيرة الجوافة، فقد سعى الرجل إلى هنا ليجد حلًّا لمأساة قومه، وليس أن تتراكم فوق

رأسه المصائب ومأساوات الآخرين، رأى قوارب تحمل بعض الناجين الذين تتراقص أرواحهم بين اليأس والرجاء.

لكز بغلة الماء لتسرع، فقالت: إلي أين أحملك يا سيدي؟

قال: إلى جزيرة التين.

قالت: ولم هذه بالتحديد.

قال: أريد أن أرى وجهًا مضيئًا للحياة بدلًا من تلك المصائب والمآسي.

قالت بغلة الماء: وهل تضمن ألا ترى مصائب ومأساوات في جزيرة التين، فلعلي أعرف من أحوال البحار والمحيطات وسكانها أكثر مما تعرف.

قال: إنه الأمل، فنحن نبحث أنا وأنت كلانا منذ نزلنا إلى ساحة المحيط الضخم هذا، ولعلنا في خضمه نجد حلولًا وثرواتٍ وآمالًا، كما وجدنا مصائب وقتلى ومساجين ومأساوات وحروبًا.

قالت: إن موعد الحروب لم يأتِ بعد، نحن لا نزال في بداية الأمر، ولسوف ترى ما لم ترَ من قبل.

قال تنتون: أسرعي يا بغلة الماء فيبدو أن الشمس تغيب ونحن لا نزال نتكلم، فلعل روابط الأحاديث تأخذنا، فيظلم

الليل ويلفنا في غلالته قبل أن نصل جزيرة التين، قالت: أنسيت أني أنير البحر بنور عينيّ، ثم هتفا في صوت واحد: إنها هي.. تلوح من بعيد طيبة وجميلة ورائعة.

وجد تنتون جزيرة التين مختلفة بعض الاختلاف عن بقية الجزر التي قابلها أو نزل إليها، فعلى رأسها يقع ميناء كبير يضم مجموعه مميزة من السفن، تملؤ الجزيرة القصور الملكية، وشوارعها نظيفة تمامًا وفي وسطها يقوم قلم مشع كبير، تهطل من حوله النوافير.

بمعنًى آخر، إن الجزيرة تبدو مختلفة كلية، ويصحُّ أن يقال: إنها عاصمة الجزر، ويبدو أن مقر الملك العجوز الذي جمع تلك الجزر في جزيرة واحدة منذ عشرات السنين كان هنا.

شجع هذا الهيلمان والمناظر الجميلة والمظاهر البديعة في العمران تنتون بن تنتن أن يسير في الجزيرة، وأن يتمشى هنا وهناك، ويبدو أيضًا أن أثرًا للإدارة الملكية القديمة يلوح من تلك الجزيرة.. آثار الأبواب والشبابيك القديمة تلوح من البيوت، وكأن البيوت تملك نظرة قديمة للإنسان، وكأن القصور الملكية تقول لبقية الجزر من ارتفاع سامق: توحَّدي أيتها الجزر تحت رايتي ، تعالَيْ إلى هنا.. إلى حيث نور العلم والحكمة.

في وسط الجزيرة أقيمت إلى جوار القلم المشع مكتبة كبيرة عظيمة الأركان، وبسطت فيها السجاجيد المزركشة، وضمت رفوفها مئات بل آلاف المخطوطات النادرة، وكأن حلماً بإنسان متحضر مستنير وضح هنا كنور الشمس.

سار تنتون متجهًا إلى المكتبة، وصعد درجها، حياه أمين المكتبة قبل أن يحييه هو، واستقبله استقبالًا رائعًا، قال: يبدو أنك غريب، من أي البلاد أنت؟ وما الذي جاء بك إلى المكتبة؟ يبدو أنك مثقف؟ أليس كذلك؟

قال تنتون: وهل هناك علامة تدل على كوني مثقفًا؟

قال الأمين : ليس أدل على ذلك من اختيارك للمكتبة موقفًا.

قال تنتون: نعم يا سيدي أنا من القرَّاء المهمِّين في بلادي، وليس أحد إلا ويعرف كوني قارئًا شرهًا؛ لذا تجدني كلما نزلت بلدًا زرت مكتبتها، لكن، اسمح لي أن أوجِّه إليك سؤالًا:

ما هذا القلم المشع في وسط الجزيرة إلى جوار المكتبة؟

قال: إن بلادنا تحتفي بهذا القلم، وبعضنا يكرهه، البعض يعتقد أنه دليل على نور العلم الذي جاءنا من السماء، من كائنات فضائية، وكان من المفترض أن يكون هذا القلم - أو

هـو كذلـك - السـبب الرئيـس في تنـوع الجـزر، والآخـرون يـرون أنـه سـبب في تفتـت وحدتنـا وبدايـة صراعاتنـا.

قـال تنتـون: ومـا السـبب في وجـود تلـك القصـور الملكيـة الفخمـة هنـا ؟ ولِمَ ليسـت موجـودة في بقيـة الجـزر؟

قـال الأمـين: إن تلـك القصـور هـي القصـور الملكيـة الأصليـة التـي تنتمـي إلى عـصر الملـك القـوي الكبـير، الـذي عاونـه السـحرة ليحتفـظ بتلـك الجـزر متوحـدة فـترة مـن الزمـن.

قال تنتون: وما حكاية الكائنات الفضائية؟

قـال الأمـين: أخبرنـا أجدادنـا أن كائنـات فضائيـة، ليسـت بالقاسـية ولا قبيحـة الوجـوه، نزلـت إلى الجزيـرة المتوحـدة ذات ليلـة باسـتخدام أطبـاق فضائيـة مختلفـة الأشـكال والألـوان، ورمـوْا إلينـا بـآلاف الكتـب، وسـمَّروا القلـم كـما تـري، أمـا النوافـير التـي رأيتهـا فهـي مـن صنـع الإدارة الملكيـة.

قـال تنتـون: أرى كتبًـا كثـيرة متنوعـة الأحجـام والأشـكال والألـوان، تصنيفاتهـا عديـدة، معلوماتهـا غزيـرة.. فهـل يقـرأ أحـد تلـك الكتـب؟

رد الأمـين: إن عـدد مـن يقـرؤون قليـل، مقارنـة بالأعـداد التـي كان أجدادنـا يخبروننـا بهـا، كـما كنـا نـرى المكتبـة مملـوءة بالقـراء

ونحن صغار، وأعرف أنك ستسألني: وأين هم القراء الآن، لكن هل ستصدقني إذا أخبرتك؟

أجاب تنتون: نعم، بالطبع.

في هذه اللحظة نزل إلى باحة المكتبة عدد قليل من الشباب يبدو من محياهم أنهم قراء، همس الأمين: إذا كنت تريد معرفة أين يذهب القراء ولمَ يختفون؛ فاصعد إلى جبل القمر.

قال تنتون: حقًّا!

همس الأمين: "إن الأمر هنا أكبر من ذلك، هل سمعت عن القوة الناعمة والموت الذاتي، والهروب الجامح، نحن هنا نعيش رهبة الاختفاء القسري للقراء، وبعضهم يتعرض للهلاوس ويذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية، إنها هنا إلى جوار القصر الملكي مباشرة، إن الملك يستمتع بمشاهدة هؤلاء وهم يرتكبون أعمالًا غير سوية، ويتصرفون تصرفاتٍ غيرَ منطقية.

القوة الناعمة هي الفنون والآداب، والموت الذاتي هو إيهام الضحية بأنه سيموت بوسائل ليس لها وجود على مستوى الواقع، فيموت وهمًا، أما الهروب الجامح: فأرجو أن تفهمه حين تصعد جبل القمر؛ لأن المتمرِّدين كرهوا البقاء، وهربوا

مـن تعـارض الأفـكار، وأنـت تعلـم أن جزيرتنـا جزيـرة زراعيـة تـزرع التـين، وهـذا هـو مربـط الفـرس".

جزيـرة التـين تعتمـد في اقتصادهـا عـلى بيـع التـين، ولا يوجـد نشـاط صناعـي أو تجـاري إلا ويقـوم عـلى زراعـة التـين، ميزتهـا أنهـا طيبـة التربـة، عذبـة المـاء، هادئـة لدرجـة بعيـدة، ولـولا مـا عرفـه تنتـون مـن أمـين المكتبـة مـا كان تملكـه الخـوف، ولمـا أسرع الخطـي إلى جبـل القمـر، وهـذا يعنـي أنـه أصبـح بطبيعـة الحـال كأي واحـد في الجزيـرة يخـاف ويحـذر، ويتوجـس مـن أي شـخص ينظـر إليـه نظـرة قـد تكـون ملحـة أو غريبـة أو مريبـة.

بـاض تنتـون وهـو يصعـد جبـل القمـر كـما يبيـض الدجـاج، حتـى انتهـى بـه الأمـر إلى أشـخاص يبـدون عديمـي الجـدوى وكسـالى، وهـذا مـا افترضـه فيهـم قبـل أن يصـل إلى قـوم أفضـل حـالًا ومنظمـين عنـد النبـع مبـاشرة، فسـقَوْه وأَمَّنُـوه؛ حتـى هـدأت أنفاسـه واطمـأن واسـتراح.

في عشـية اليـوم التـالي اسـتمع تنتـون إلى القـوم وهـم يتناقشـون، كانـوا ثلاثـة نفـر تبـدو عليهـم سـيماء الرجولـة والشـباب، ليسـوا صغـيري السـن، ولكنهـم طويلو اللحـى، ويظهر مـن كلامهم الخبرة.

قـال الأول: لقـد مـضى العهـد الـذي نسـكت فيـه عـلى فـوضى المؤامـرات الخفيـة التـي يتعـرض لهـا المثقفـون في جزيـرة التـين.

قال الثاني: إن هروبنا هذا لا يعني سوى شيء واحد، وهو جاهزيتهم للقضاء علينا في أقرب فرصة.

قال الثالث: أين تذهب الأموال والثروات المدفونة في القصور؟ وكيف سنتعامل مع السحر والخرافات والشعوذة؟ لقد مللت كل هذا.

أقبل عليهم تنتون وسألهم: هل لي في سؤال حيرني منذ وطئت هذه الجزيرة والجزر الأخرى؟ كيف يعيش الناس في هذا الفقر المدقع، مع أنهم يجتهدون في العمل، ويصدرون الفاكهة، ويملكون تجارة بينية؟

وقبل أن يجيبوه على هذا السؤال: سمعوا من بعيد صوتًا مدويًّا يعلن عن هجوم بالأسلحة الخفيفة من قبل قوات تابعة للملك والسحرة والسياسيين الحمقى.. ارحلوا.. اهربوا..

فر تنتون مع من فر إلى شاطئ البحر، وأسرعوا إلى قوارب كانوا قد أعدوها للهرب إلى أبناء عمومتهم في جزيرة العنب.

جزيرة العنب

مثلما اضطربت نجمة في مداراتها
أمسِ قد مر طاغية من هنا
نافخًا بوقه تحت أقواسها
وانتهى حيث مر

الفيتوري

***

وكان من رحابة صدره وإحساسه العارم بالمسؤولية تجاه هؤلاء أن حمل معه بعضهم على بغلة الماء، وأسرع الباقون يخترقون الماء بمجاديفهم الطويلة والقصيرة، حتى وصلوا جزيرة العنب، وكان أهلها أعلم الناس بواجب الضيافة.

نزل تنتون مجهدًا هو والمثقفون معه إلى جزيرة العنب، وتأخر وصول بقية المثقفين إلى اليوم التالي؛ نظرًا لفرق السرعات بين بغلة الماء السريعة، والمجدفين المرهقين الذين لم تكن تلك مهنتهم ولا هوايتهم، اللهم إلا القراءة.

قبل أن يترك الشاطئ أشفق على بغلته بغلة الماء من عنف السباحة في الليلة الماضية؛ حيث تحملت أضعاف أضعاف ما يتحمله المجدِّفون فور هروبه مع القراء والمثقفين من جزيرة التين.

نظرت إليه بغلة الماء نظرة إشفاق وتحنان، وقالت: رغم ما حدث فإنني أشفق عليك مما حدث في جزيرة التين أن يحدث معك في جزيرة العنب، وليست هذه من تلك ببعيدة، فهتف الأهالي بها: لا تخافي يا بغلة الماء فنحن نرعاه بعد رعاية الله، وليس يحدث هنا ما حدث في جزيرة التين.

ما رآه تنتون في جزيرة العنب مختلف كليًّا عن غيرها من الجزر؛ فالجيش هنا يحكم.. طوابير طويلة ومنتظمة تمر من هنا وهناك حول القصر وتهدِّد الخارجين على القانون، وحقيقة يشعر السكان المحليون بالأمان في ظل وجود الجيش في السلطة، ولكن ما الذي أتى بالجيش إلى السلطة؟ وكان ذلك سؤالًا مثيرًا للحساسية في ذلك الوقت، حيث يستشعر العنبيُّون الإحساس بالعزة والفخار كلما جاءت تجربة الجيش أمامهم، ولجيشهم تاريخ:

الجيش كان السبب في انتصار الملك على أعدائه في أكثر من موقع، ولكنه بالنهاية ملك فاسد، ورغم كونه شارك في إحدى المعارك المهمة في تاريخ الجيش فإنه ترك الفساد الإداري يدب إلى أوصال الدولة، وحدثت اضطرابات شعبية قادها المثقفون، فقام الجيش بحماية الجميع، ووقف ضد تفتيت الدولة المتعمد الذي كانت تنويه جهات خارجية.

كانت الأسباب الداعية للمثقفين من أجل التحرك ضد الملك ومعهم طائفة من الشباب المحليين كثيرة، أبرزها احتيال الملك على أموال الشعب، وقيامه بتنفيذ تدابير سيئة كان لها وقع رهيب على مكتسبات الجميع بمن فيهم السحرة، بدا هذا محيرًا ومربكًا لتنتون، وبناءً عليه قرر الدخول في مناقشات مع السكان والمثقفين.

حين جلس إلى المثقفين - وهو ما اختاره أولًا - أطلعوه على الأمر، قالوا: إن الملك عارض فتح المجال للمثقفين في الحركة داخل صفوف الشعب، وأصدر أوامره بتكبيل أصحاب الرأي، وأودع الكثير منهم السجون.

وفي بداية الحركة المناوئة له أصدر المثقفون توجيهات لعموم شعب جزيرة العنب بمناهضة الملك ومعاونيه، هنا استلهم تنتون شيئًا مهماً، وهو أن تقدير العنبيِّين للجيش نابع أساسًا من تقدير المثقفين له، وهنا هتف الجميع: القيادة للمثقفين.

قال تنتون في سره: هذا مخجل أن أعيش أنا وقومي حياة مليئة بالزخارف، وأنسى تمامًا الزخم الذي تملأ به القراءة حياة الناس.

كان العنبيون يتجوَّلون في أنحاء الجزيرة بحرية رغم فرض الجيش حظر التجوال على الأشخاص العاديين، وتولى الشباب المناداة بالتغيير، وهو ما وضع الملك تحت الإقامة الجبرية.

عقد تنتون اجتماعًا مع قائد حركة المثقفين بدءًا، وكان المناخ مؤهلا لذلك، (مناخ الحوار اتسم بالأريحية والروعة).

قال تنتون: ما الذي دعاكم إلى التحرك ضد الملك؟

قال كبير المثقفين: ما فائدة حياة الإنسان دون أن يناضل بفكرته ضد إفساد العالم، وأن يقيم ثورة ضد الطغيان، وأن يأكل مع الفقراء فتات الخبز، وأن ينام مستريح الضمير في ظل شجرة.

قال تنتون: وهل ما فعلتموه يصب في هذا الاتجاه؟

قهقه الكبير وقال: لنثبت ذلك؛ عليك أن تشاهد بنفسك الكثير من الثوار وهم يرقدون في خيام أمام قصر الملك، وتحت ظلال الأشجار في الحدائق والحقول والبساتين، إنها ثورة العنب.

قال تنتون: وكم استغرق بكم الوقت لوضع الملك تحت الإقامة الجبرية وتغيير الأوضاع؟

قال الكبير: لا نستطيع أن نحدد بالضبط، لكن بالنهاية لا يزال الجيش يحافظ على الأمن ، ولا نزال نحن نتحدث عن برنامج وطني للتغيير.

انتقل تنتون بعد ذلك للحديث مع الشباب، وكان الشباب هم الذين تصدروا مظاهرات ضخمة استجاب فيها السكان

المحليون عامة الشعب لنداء التغيير، ودفع بعضهم الثمن من حيواتهم حتى إن بعضهم سحل، وقتل، ومات تحت أرجل المتظاهرين الزاحفين نحو قصر الملك الأعظم.

قال تنتون: أيها الشباب، متى حلمتم بالثورة؟

رد الشباب: إن الإنسان يحلم بالثورة منذ نعومة أظفاره ومنذ وصوله على حافة الحلم، عندما يناهز المراهقة يظل يطبق الثورة بمبادئها إلى الأبد، إلى أن يموت.

قال تنتون: وهل تحقق الثورة لكم الإشباع النفسي؟

رد الشباب: إن الثورة تملأ نفوسنا بالعزة والكرامة، وتحفزنا نحو التقدم، وتجعلنا نحن وحركة الكون واحدًا، نتماهى فيها.

قال تنتون: وهل لكم من معلم؟ وهل لجيلكم أساتذة أيها الشباب؟

قال الشباب: إن جيلنا بغير معلم، اللهم إلا المكتبة العامة الكبيرة، نقرأ، وقرأنا الكثير والكثير عن تجارب الناس في المدن والبلاد والجزر، عرفنا المآسي عن قرب، ومن خلال الكتب عرفنا ثورة العالم من أجل الحرية بمفهومها الواسع، اطلعنا على ضمير الدنيا الكبير من خلال القراءة.

شهية هي الكتب.. ألا تصلح للأكل؟ (قالوها ضاحكين).

واستمر تنتون يعقد الجلسات تلو الجلسات مع شباب العنبيين، ومع المثقفين حتى شعر بامتلاكه خبرة تشبه خبرة الشباب والمثقفين في الصعود إلى منصة الحلم، كان الشباب والمثقفون قد أقاموا منصات في الميادين، وأمام المكتبة العامة، وفي أعلى جبل القمر ليهتفوا باسم الثورة، وحقوقها وأهدافها.

من المنصات أطلقت الحناجر الأصوات المنادية بالحرية، وأقام الجيش المتاريس اللازمة لحماية الثورة، ولم تكن إمكانات الجيش تلك سوى الحراب والرماح (انتشرت شائعات حول استعانة الجيش بأسلحة سرية لم تكن متاحة لميليشيات الملك)، وأحيانًا تكون الأيدي المجردة من السلاح هي الحل في مواجهة هجوم نظام الملك، الذي تفتت إلى ميليشيات صغيرة.

جزيرة العنب

يا جزيرة العنب

لا نقاوم الحراب

إلا لأننا نحبك

وننطح الصخور بالرؤوس

لأننا نحبك

جزيرة العنب

يا جزيرة العنب

كوني لنا كوني لنا

كل الرجال ها هنا

يرفعون رأسهم في السماء

لأنهم قضوا على الملك

ونحن نستعرض القوى

لأننا هنا

مستعدون للموات

من أجلكِ

يا جزيرة العنب

وتاهت عقول العنبيين بين الفكر والكلام، وتنوعت صرخاتهم التي ترد على الشباب والمثقفين وهم على المنصات المتوزعة، بدءًا من المكتبة، ومرورًا بالشواطئ وانتهاءً بقمة جبل القمر.

" فلتحيَ جزيرة العنب.. جزيرة العنب.. ألا فلتحيَ جزيرة العنب "

لا يدري تنتون متى قادته قدماه إلى الشاطئ، ومتى بالضبط حمل معه بعض المنشورات التي كتبت على الرفوف، وكيف حملت روحه مزيجًا من الشعور بالثورة إلى قمتها، غاضبة ومتحفزة وهادرة مع الطوابير الطويلة في الميادين، ومع النفوس المتحفزة، ومع الأصوات الهادرة في جميع أنحاء جزيرة العنب، استقبلته بغلة الماء - وكانت في انتظاره - متحفزة لحمله إلى مكان آخر في تلك الجزر المترامية ، بعضها لا يزال يحكمه السحر والخرافة، والأخرى زال عنها أثر السحر إلى الأبد.

جزيرة القمح

"... حريف كالكاري، ومميت كسم الأفاعي"

تنتون

***

هبط تنتون إلى جزيرة القمح في حدود يوم من جزيرة العنب، ويبدو أن وسيلة انتقاله لم تعد تتمتع بنفس المقومات التي كانت تتمتع بها من حيث السرعة والتركيز، ويظهر أيضًا

أن جزيرة القمح تبتعد عن جزيرة العنب ابتعادًا كبيرًا، كانت سفوح الجبال والسهول قد أنبتت القمح وأنبت القمح السنابل.

تبدو من بعيد ومن قريب مليئة بالتقنيات الحديثة، وجزيرة القمح تساوي بين الجميع، سكانها من تشكيله متنوعة، بعضهم بِيضٌ وأصحاب تاريخ في هذا البلد؛ حيث إنهم هم الذين قادوا الثورة الأولى، وكانوا أسياد السود قبل أن تتطور مفاهيم المساواة والحريات، بعد حرب أهلية نشبت ولم تنجح كثيرًا في تحقيق المساواة، السكان السود بدؤوا يحصلون على امتيازات جديدة، ولكنهم بالنهاية لم يحصلوا على الكثير، وإن كان بعضهم وصل إلى مستوى السحرة وأبنائهم وأحفادهم.

ولكن، ماذا يعني تحول الإنسان إلى ساحر؟! سأل تنتون، أجابوه: إن تحول الإنسان إلى ساحر هنا يعني قدرته على جذب اهتمام الجميع - بمن فيهم نخبة الجزيرة من المفكرين والمثقفين - إلى قضية تافهة غير ذات أهمية، أو تحويل الانتباه عن قضية أخرى.

وصول المثقف هنا أو المفكر إلى مرتبة ساحر لا يتوقف خطره على مجتمع جزيرة القمح فقط، وإنما يتخطاها إلى مجتمعات الجزر القريبة والبعيدة؛ حيث ثبت أن أفكار هؤلاء - والتي تتسم في أحيان كثيرة بعدم المثالية، وإنما النفعية - تتخطى أحلام الجزيرة ومجتمعها بالاستقرار والرخاء والأمن، وتتعدى

ذلك إلى الاستيلاء على مجتمعات وجزر أخرى، وإخضاعها لسلطة المجتمع القمحي.

بل ويبتكر السحرة أساليب قد تُعطِّل مسار الجزر جميعًا من أجل مصلحة جزيرة القمح؛ حيث تحتكر الجزيرة تقنياتٍ صناعية ذات مستوًى حساس وخطير.

عادة ما يسير السياسيون خلف المفكرين والسحرة، وتعد تلك إستراتيجية بديلة لوجود الملك على رأس سلطة نافذة، الملك منزوع الصلاحيات هنا، ولا تصدر عنه كثير تصريحات، اللهم سوى التقاليد المعتادة والمعروفة عن بقية الملوك.

يجلس في يوم استلامه السلطة (يوم التتويج الأول) ليحتفل به السكان المحليون، ثم إن شعب الجزيرة لا يرحب عادة بإعطاء الملك سلطات واسعة، نظرًا لما يترتب عليه ذلك من ابتزازات في سلك الأجهزة الحساسة لبقية الشعب، لذلك نزع القمحيُّون السلطة على فترات متباعدة من الملك، وكلفوا سياسيين لهم صفة البراجماتية والميول النفعية بإدارة شؤون الجزيرة.

البراجماتية هنا لا تعني مجرد احتواء الجزيرة على أشخاص من النخبة يتحكمون في مستقبل الجزيرة من بعيد، أو دون الوصول للسلطة، ولكنها تعني أيضًا نظامًا تعليميًّا شديد النفعية والتحيز.

كان تنتون يستمع إلي المتحدثين شديد الاهتمام بما يقولونه، وقال: ما السبب في أن إدارتكم المحلية جيدة؟! يعني أنا أرى الخدمات تقدم بشكل واسع، الطرق ترصف والمياه تعمل، وكذلك الصرف الصحي؟

قال المتحدثون معه: إن السبب الرئيس في كل ما نحن فيه بعد بناء الإستراتيجيات هو حسن الإدارة المحلية، أضف إلي ذلك تدني مستوى الفساد، وشدة الذراع المحاسبية داخل بنيان الجهاز الإداري للدولة.

قال تنتون: فهمت هذا؛ فما هي الأجهزة الضخمة الحساسة والأسلحة المميتة الكبيرة الحجم، التي أراها تحلق في السماء مثل الطيور؟

قال المتحدثون معه: إن الأجهزة والآلات تسمى بالطائرات، منها طائرات قادرة على اجتياز مسافات كبيرة وقتال الأعداء من بعد وهزيمتهم، وقد أنفقنا عليها من عائد المنتج الزراعي وهو القمح والمنتج الصناعي شديد التنوع الكثير.

قال تنتون: فمنذ متى وأنتم تخوضون الحروب وتقتلون البشر؟

قال المتحدثون: نحن لسنا أقل حظًّا في العنف من مصاصي الدماء، ولذلك فنحن نعتبر الشعوب الأخرى فرائس تستحق

القتل، ملايين وألوف الأشخاص والبشر دفعوا حياتهم ثمنًا للمواجهة معنا، نحن شعب براجماتي وعتيق ومتعالٍ إلى أبعد الحدود.

(لم يكن هناك مفر من تدخل الآخرين للسيطرة على مجريات الحديث، ويبدو أن المتحدث السابق كان ضمن اللوبي المنادي بتغيير نظام التعليم، الذي ينتهج البراجماتية والنفعية منهجًا وأسلوبًا وطريقة).

قال متحدث آخر: إذا لم يكن بد من دخول الحرب فنحن نبتكر الحجة والسبب لدخولها، نحن لسنا طيبين، ولكننا نحتفظ لأنفسنا بحق الرد على العدوان، ونحن بذلك لسنا متطرفين، لسنا مضطرين بالأساس لتبرير الحرب، إذا كنا ندافع عن ترابنا الوطني سواء بالداخل أم بالخارج.

قال متحدث آخر: أما الكلام عن النظام التعليمي، فنحن نعتبر أنفسنا وجزيرتنا من أكثر الجزر تطورًا في النظام التعليمي، لم نتفوق على الجميع في هذا الإطار، ولكننا نعتبر نظامنا التعليمي جيدًا؛ فهو المسؤول عن كل هذا التطور، هو الذي يضمن لنا الهيمنة عبر سياسيين غير سذج، ولكنهم منطقيون إلى حد كبير.

قال متحدث آخر: قد تعتبر ردودنا متطرفة بعض الشيء، أو فوق العادة كثيرًا، ولكننا على كل حال نعتبر حق الرد

مـبررًا، والجاهزيـة للحـرب الاسـتباقية وتفعيـل الأجهـزة المبيـدة هـو المحـرك لنفوذنـا، والسـبب الرئيـس في مسـتوى الكراهيـة الـذي وصلـت إليـه الجـزر، حتـى أبناؤنـا في الداخـل يحتجـون كثـيرًا ضـد الحـروب الدمويـة التـي نخوضهـا.

قـال آخـر: إنـك والقادمـين مـن خـارج الجـزر قـد تتبعـون نظامًـا مـا في التعامـل معنـا، ونحـن لا نلجـأ إلى مسـتويات سـاذجة في التعامـل، ولكننـا نتعامـل مـع الآخريـن مـن منطـق الرهبـة والشـك المسـبق.

المثقفـون هنـا يعيشـون أفضـل مسـتويات الفكـر والحريـات اللازمـة، عـلى الأقـل مقارنـة بالجـزر الأخـرى، وتقويـض سـلطة الملـك جـاء ضمـن أسـس الفكـر الحـر الـذي تسـير عليـه الجزيـرة، ولهـذا فـإن المثقفـين يفكـرون كـما شـاؤوا ويعملـون كيفـما يحبـون، المهـم ألا يكونـوا هـم أنفسـهم كسـالى، الكسـل يعـود بالأسـاس إلى توفـر كل شيء، وقـد يـؤدي إلى الإفـراط في السـمنة.

الكتـاب كثـيرون والقـراء أكثـر، ولـذا فـإن الجزيـرة تعيـش أسـعد أيامهـا، وهنـاك مشـاكل قـد تتناثـر هنـا أو هنـاك، ولكنهـا تقـع في إطـار مـا يسـمى بالأمـن القومـي، المثقفـون بهـذا الشـكل يخوضـون تجربـة حيـة كل يـوم، العـالم في جزيـرة القمـح يتغـير، وتتبايـن الأفـكار والآراء ضمـن مـشروع الحريـات، ولكـن المثقفـين

قـد يكونـون متطرفـين في نظرتهـم إلى الجزيـرة باعتبارهـم قمحيِّـين، وكأن كل داخـل إلى الجزيـرة يتقمَّـح، وليسـت الجزيـرة بمنـأى عـن قبضـة الثلاثـي (المثقفـين والسياسـيين والبحـث العلمـي).

بعـد المناقشـة المحتدمـة سـارع تنتـون يمـر في الجزيـرة، ويسـافر فيهـا تـارة عـلى وسـائل التقنيـة وتـارة بالحيوانـات، و يتزلـج عـلى الجليـد تـارة ويركـب الجمـل تـارة أخـرى، ويسـعى ويمـر هنـا وهنـاك.. يـرى معـالم الحضـارة الحديثـة، ويتجـول داخـل أروقـة المكتبـات، يقابـل السياسـيين ويديـر معهـم الحـوار، وقـد حفـظ منهـم عـدة مقـولات تبـين إلى أي حـد هـي قاسـية وبديعـة تلـك الجزيـرة:

"كل شيء مباح سوى الأمن القومي لجزيرة القمح".

"أمننا القومي يشمل خريطة الأرخبيل المفتت".

"التعليم يتعامل مع المنتج البشري وليس مع الأخلاقيات".

"الـشيء دائـم التجـدد هنـا هـو السياسـة الخارجيـة والسـيطرة عـلى الداخـل".

"تدمـير الخـارج خـير ألـف مـرة مـن سـقوط أروقـة المكتبـات في الجزيـرة في أيـدي مـن لا يفهمـون، سـوف يكـون مصيرهـا الحـرق حـين ذاك".

المفكرون السحرة كان لهم نصيب من الجلوس مع تنتون، وكان يعلم تمامًا حقارة ما يصنعون، وسوء ما يفعلون، وهؤلاء قد ارتقوا في ميادين الفكر والسياسة حتى وصلوا إلى قصر الملك فأصبحوا سدنته.

هم ليسوا قائمين على الأمر برمته، ولكنهم يختلقون من الجذور وحتى الأطراف أفكارًا جديدة كل يوم، تبدو متسلطةً أحيانا ودموية غالبًا، فقط من أجل الحفاظ على سمعة جزيرة القمح قوية ونشطة وغنية.

"سيد تنتون". (قالها أحدهم معتزًّا بكبريائه، ولكن بالنهاية بدأ حديثا سلسًا عله يحصل على عميل محتمل خارج نطاق الجزر، وكانت السفن والغواصات قد أجرت تجارب وقامت برحلات اختبارية خارج نطاق الجزر ولم تعثر على شيء، ولولا بغلة الماء تلك الدابة الغريبة ما استطاع تنتون الوصول بالعكس إلى تلك الجزر المفتتة).

ما التصور الذي يعتز به قومك في تلك الأوقات التي لا يعرفون لهم فيها عدوًّا؟ قال تنتون: إنهم يبذلون الطاقات الكبيرة لصناعة واقع سوداوي مقرف، هذا الواقع لا يخدم لا الملك ولا السياسة ولا البحث العلمي، نحن نعيش في واقع مزرٍ أيها السادة. قال المتحدث: ومن أي البلاد أنت؟

تلقف تنتون السؤال بحذر، وتصنع البلاهة وقال: أنا موجود في كل الجزر المفتتة حولكم، القريبة منكم والبعيدة، ومن يزرعون الفراولة والأناناس والموز والبرتقال والمانجو وغير ذلك، أنا ابن الاقتصاد الزراعي، قومي ينتمون إلى كل ما سبق، قومي موزعون في كل الجزر، أنا مدين للبحر بأن عرفني بكم، مدين لبغلة الماء التي حملتني إليكم، مدين لبغلة الماء التي عرفتني بساسة ومفكرين من نوع مختلف **"حريف كالكاري ومميت كسم الأفاعي"**.

جزيرة المانجو

"من لا يعرف الكتمان لا يعرف الحكم"

مثل عربي

***

وهنا استأذن تنتون لما استشعر الخطر على قومه وانتمائه ليقوم سريعًا متوجهًا إلى ميناء المدينة التي حدث فيها الحوار السابق، فرأى الميناء مكتظًّا بالسفن الضخمة التي لم يعهدها في بلاده ولم يرها في الجزر السابقة، اللهم إلا القليل.

بغلة الماء سريعة في حضورها إلى الشاطئ واعتزازها برفيقها وصاحبها، حياها بلطف وقد بدا عليها الكثير من النشاط بعد الراحة، وصارت كما كانت في أول الرحلة قوية وسريعة كالسهم حين ينطلق، هي على شفير الواقع الآن؛ فقد صار سيدها مختلفًا من حيث الفكر والتجربة عن ذي قبل، أصبحت نظرته مختلفة، وكلامه ممنهجًا، وصحته قوية، بنظرٍ بعيد، وتفاؤل رشيد، قفز تنتون فوقها كما يقفز لاعب الجمباز، ليجوز بها البحر إلى جزيرة المانجو.

خلال سيره مسافة طويلة من ميناء الجزيرة لم يلحظ شيئًا مختلفًا أو شيئًا ذا بال، المكان صحراء واسعة، مترامية الأطراف ليس فيها حجر ولا شجر، فسار حتى أعياه المسير والشمس في كبد السماء فرن إلهي هائل، يجعل الرمال تغلي أسفل قدميه مثل الماء.

فجأة ظهرت أمامه دابة بيضاء تشبه الحصان والنسر والضفدعة في آن واحد، لم يكن يتصور أن يجد الجزيرة بهذا الوضع، ولا أن يرى فيها صحراء بهذا الاتساع، أضف إلى ذلك الدابة الغريبة الشكل التي وضعها القدر أمامه، ونظرًا لما رآه وعاناه خلال سيره في الصحراء سارع إلى الدابة البيضاء وركبها من فوره، وجعلت قفزاتها ترميه من بحر رمال هائل

إلى رمال ثابتة لا يوقفها شيء، حتى وجد نفسه على مشارف مدينة الكثيب الأعظم، التي رأى فيها ما لا يُرى.

بدا الغموض على المدينة وظهر أن هيكلها شديد السحر، وسدنتها شديدو الكتمان، والنظارات السوداء والبنية تتوزع على وجوه أصحاب الياقات والمهندمين، سحر مشيتهم وكتمانهم يتخطى الأسوار العازلة بين البيوت إلى اعتقاد راسخ بضرورة الكتمان.

لا شيء في تلك البيوت أو الشوارع سوى رائحة الأسرار، التي لا يفوح منها سوى أصحابها، دومًا يجد تنتون سدنة المدينة يهبطون من سيارات عصرية مذهلة السرعة إلى باحات ومبانٍ فارهة، يقظون دائماً، يسرعون بالنظر إليه نظرات عجلي وسريعة لكنها فاحصة، من خلف نظاراتهم طبعًا، يُترجَم وعيهم بالشخص الماثل أمامهم في كوب عصير المانجو الأصفر اللذيذ، الذي تعوم فيه قطع الثلج ومكعباته.

يتوقف نبضه فجائيًّا حين تتوقف سيارة سوداء ذات زجاج ملون نزل منها ستة رجال عريضو الصدور، يلبسون ثيابًا فارهة، أحدقوا به، ولم يكن يملك سوى أن يرفع يديه إلى فوق مستظهرًا آيات من الذكر الحكيم، علها تنجيه مما وقع فيه.

دفعه الرجال الستة دفعة واحدة إلى داخل السيارة السوداء ذات الزجاج الملون، ولم ينبثوا ببنت شفة، وسارت السيارة تقطع الشوارع الرئيسة والفرعية حتى نزلت بساحة شديدة الاتساع في إحدى نواصيها قصر رفيع المستوى، عرف تنتون من هيئة القصر أنه لجهة حكومية نافذة، ملأت الصقور الساحة ما بين حائم وجاثم، تنتشر هنا أو هناك، وتفرد أجنحتها في الفضاء الواسع خارج المدينة وداخلها؛ لتصيد الثعابين والضفادع والفرائس كافة، لم تستطع قدما تنتون حمله أكثر من ذلك، ودارت عيناه في رأسه فسقط مغشيًّا عليه.

جزيرة المانجو جزيرة مليئة بالصحراوات والأراضي الزراعية والمدن، وبساتين المانجو تنتشر على نطاق واسع في الجزيرة، ولكنها تطل على المحيط في بعض النواحي، وتتداخل مع المدن في نواحٍ كثيرة، شراب المانجو هو الشراب الشعبي، لا يمكن تكوين رابطة بين الغرباء والمانجويين، فهناك نظام أمني شديد التطور يتمكن من كشف أي اتصال أو أي شبكة لجمع المعلومات من سكان الجزيرة الوطنيين.

لكن علامَ يقوم اقتصاد جزيرة المانجو؟ يظهر من الشكل العام للجزيرة أن اقتصادها يقوم على زراعة فاكهة المانجو بأنواعها، ولكن بالنهاية تلك المنتجات الزراعية ليست

مسؤولة، أو الموارد التي تأتي مقابلها، ليست مسؤولة عن كل ذلك التطور والتقدم المبهر، الذي يلمسه الزائر في العمران والأبنية والقصور الفارهة، وكذلك السيارات وسبل السفر، ويبدو أن المخلوق العجيب الذي أنقذ تنتون من الصحراء ما هو إلا آلة شديدة التميز، ابتكرها أحد المانجويين، وجرى تطويرها بعد ابتكارها.

حين أفاق تنتون لم يكن أمامه سوى أن يخضع لتحقيق شديد السرية والخطورة، جاء فيه:

س: ما اسمك؟

ج: تنتون بن تنتن.

س: من أي الجزر أنت؟

ج: من مملكة التناتنة.

س : اسم غريب! من الملك؟ وما نظامكم السياسي؟ وهل سلطات الملك لديكم مقيدة أم مطلقة؟ علامَ يعتمد الاقتصاد لديكم؟ هل الاقتصاد عندكم زراعي أم صناعي أم تجاري أم مختلط؟

والكثير و الكثير من الأسئلة التي تحمل تارة الترهيب وتارة أخرى الترغيب، وفي أحايين أخرى تحمل طابع الغرابة، وقد يشعر المسؤول أن الأسئلة تحمل معنيينْ في وقت واحد!

بعد تدخل رجال ذوي سلطة ونفوذ للإفراج عن بعض المعتقلين السياسيين - وخاصة الغرباء - خرج تنتون بعد أن أرهقته الأسئلة التي وجهت إليه نفسيًّا وعصبيًّا، أسئلة من هذا النوع قد تعرِّض أكثر الرجال ثباتًا إلى السقوط مغشيًّا عليه، وهل يقرُّ لقلبك قرار يا تنتون بعد أن يسلبك الرجال الستة من رحم المدينة إلى جهة لم تعرفها؟!

هذا أمر محبط بشدة لكل أولئك المعتقلين، خاصة بعد أن يوضعوا تحت المساءلة، والتفتيش العميق عن جدوى مجيئهم إلى جزيرة المانجو، التي يهيمن عليها رجال رفيعو المقام، يشربون المانجو بشكل أساسي في الطرقات والشوارع، وعلى المقاهي، وفي مكاتبهم الأنيقة التي يغلِّفها الطابع السرِّيُّ كثيرًا.

جزيرة المانجو كما يظهر من مدنها دولة متوسطة الحجم، تعتمد السرية طابعًا في كل شيء، ويهيمن على شؤونها جهاز سري جدًّا يخضع الجميع لسلطاته، وهو المرجعية هنا وليس الملك، بل إن الملك ذاته لا يستطيع تفتيش مقراتهم بشرطته، ولا أن يحرج نفسه بالدخول في صراع مع هذا الجهاز شديد السرية.

يعود الأمر إلى زمن بعيد؛ حيث اختار هؤلاء الرجال جزيرتهم لتكون مقرًّا لعملياتهم الخاصة بالتقنية و التحديث والبرمجة، والمراقب – إذا استطاع أن يراقب – سيلحظ أن الجزيرة

لا يكفي اقتصادها الزراعي من المانجو للحصول على التمويل الكافي عند نشوب حرب، أو حدوث كارثة طبيعية واسعة المدى.

في الأعياد القومية لا تحتفل جزيرة المانجو كما تحتفل عامة الجزر، بإطلالة على المتاحف والساحات بالورود والمزهريات والشموع، وإنما يخرج الملك في سيارة أمامها وخلفها الكثير من السيارات التي تشبهها بالزجاج الملون القاتم، والسرية التامة، ليمر على أخطر البنايات حساسية، والتي يخرج منها الإبداع البشري والاختراع، والداخل إلى هذه الأماكن - حتى من الرجال الأنيقين ذوي النظارات السوداء - يتعرض للتفتيش القسري؛ فمن هذه البنايات تخرج الأبحاث العسكرية وشبه العسكرية إلى أماكن الابتكار والاختراع والتنفيذ؛ ولذا تصنف - رغم ملف حقوق الإنسان - على أنها دولة قوية ذات اقتصاد مزدهر.

يسيطر الرجال الأنيقون ذوو النظارات السوداء على منابع الفكر في الجزيرة، ولا يقوى مواطن بدءًا من محدودي الدخل، ومرورًا بالشعراء والكتاب، وانتهاءً بالملك ذاته على بيع تجارته خارج الجزيرة، وإنما يكافأ مكافأة كبيرة ويبيع فكره وإنتاجه قسرًا للدولة، وتعد الصحراء الواسعة مكانًا طيبًا لتجربة الابتكارات والاختراعات، ومنها الابتكار الذي ركبه تنتون عند دخوله للجزيرة.

أقام الرجال الأنيقون متاريس في الشوارع، واستعانوا بقوات الجيش للسيطرة على عدة هجمات إرهابية من قبل متمردين ظهروا فجأة، ويبدو أنهم جاؤوا من خارج الجزيرة من حيث الأصل.

ينتمي الرجال أصحاب الياقات النظيفة، الذين يحكمون الجزيرة نيابة عن الملك والمثقفين وعامة الشعب إلى جزيرة المانجو، ولا يعرفون انتماءً لهم سوى للجزيرة، وهم ينتمون إلى الطبقة الوسطي؛ لذا تري تحقيقاتهم مبنية على أسلوب عالٍ في الآداب العامة والخاصة ومعاملة المجرمين وغير المجرمين، أما انتماؤهم للطبقة الوسطي فيعود إلى الحماية المجتمعية لمجموعة من رجال الدولة الثقات، الذين يعملون أو عملوا بالجهاز الإداري لفترات طويلة، جعلتهم مصدر ثقة الشعب والقوى النافذة في الحكومة، كما جعلتهم أكثر رقيًّا في المعاملة والأسلوب، كما أنهم ربوا أبناءهم على مستويات أرقى من الطبقة الدنيا، وأقل تسلطًا من الطبقة العليا، كان هذا سببًا في صعود أبنائهم وفق رعاية شعبية خاصة إلى مراكز الحكم، وجعل ذلك الملك تتقوض سلطاته لصالح نفوذهم تدريجيًّا ، وبناء على مباركة من القوات التابعة للدولة والحكومة.

بعد خروجه من مركز الاعتقال والتحقيقات شعر تنتون بكثير من الأمان، وخصوصًا مع حمله توصية لمنع اعتقاله من الأجهزة الأمنية، ولذا اختار أن يمر على مدن المملكة أو جزيرة المانجو قبل رحيله عنها، وشجعه على ذلك توفر الأجهزة والرجال الآليين الذين يسيرون بسرعة الريح عبر الصحراء.

جزيرة الرمان

"الذين يرفضون الثورة السلمية
إنما يعجلون بحتمية الثورة العنيفة"

الرئيس الأمريكي

جون كيندي

***

رحل تنتون عن جزيرة المانجو مساء ليلة صيفية من الميناء نفسه الذي رمته منه بغلة الماء إلى الجزيرة، وجدها بانتظاره وكأنها تشعر بخلجات نفسه واضطراب وجدانه، ولم يكد يمر على حملها له ثلاث ساعات حتى وصل جزيرة الرمان، تلك

الجزيرة المليئة بالسحر والغموض، ويستشعر الداخل إليها رهبة تقطع كل حنين داخله إلى الاستقرار، قال في نفسه: لقد طالت الرحلة يا تنتون، ولم يعد ملائماً الرجوع دون فائدة الفوائد.

لَّما دخلها رأي فيها رجالًا مقنعين ونساءً مقنعات، فجعل قفاه ملفوفًا، وقال: هذا أول الغدر، ومضت ثلاثة أيام أخرى لم يعرف فيها تنتون طعم النوم والراحة، فلا أحد يكلمه من أهل جزيرة الرمان المقنعين والمقنعات، ولا هو يفهم ما يحدث حوله، هو يعلم أن للجزيرة ملكًا، وطبقا لخبرته السابقة مع الجزر كان يعلم أن للسحرة وجودًا نافذا في الجزيرة، لكنه تحير.. أين هم السحرة أو أين يختبئون!

حاول التحدث مع أحد ذكرًا كان أم أنثى؛ ليعلم كيف تسير أحوال الجزيرة فلم يجبه أحد، وبعد مضي مدة رأى المساجد والمعابد والكنائس تفتح هنا وهناك، وسمع الأجراس والمآذن ترتفع أصواتها في كل مكان؛ فعرف أنه أمام وجود ديني وصراع مبطن على السلطة، أو هكذا لاح له.

وقف تنتون على قارعة الطريق فرأى بعض الرجال والنساء يرتدون زيا موحدًا، ويقطعون الطريق، يرفعون راياتٍ مكتوبًا عليها ما يأتي: "ليس من حق الملك مصادرة حقنا في التعبير عن الرأي"، "الساكت عن الحق شيطان اخرس"، "المغفل من

سرق قوته ثم يدعي الفقر"، "لماذا يموت أبناؤنا في المحيط، وأين جثثهم؟"، "من المسؤول عن هذا الكم من الاعتقالات".

بعد قليل رأى رتلاً عسكريًّا قدم من بعيد فهرب الرجال والنساء ولم يعثر عليهم، وبعد اختفاء الرتل العسكري المسلح ظهرت مجموعة أخرى من الرجال والنساء، فقطعت الطريق، وحملت يافطاتٍ مكتوبًا عليها: "لا سلام دون القصاص من القتلة"، "الرعية تطالب بالحرية"، "ضاع شبابنا فأين الثمن؟"، "لا حرية بغير قضية"، "الجوع أمامنا والبحر خلفنا فأين المفر؟".

خاف تنتون من كل مظاهر الاحتجاج في جزيرة الرمان؛ إذ إنه لم يتعلم الاحتجاج في وطنه، كما أنه لم يعهدها في الجزر التي مر بها خصوصًا جزيرة المانجو، توجه تنتون مباشرة إلى بيت الكتب، وكان كل شيء فوضويًّا، وتنتشر في أدمغة الرعية والناس كلهم الضلالات الفكرية؛ بحيث أمكن لتنتون أن يرصد حالات كثيرة تشير إلى هوس المجموعات المناهضة للنظام الموجود بالسلطة بنشر الشائعات والشائعات المضادة، وقد ارتقب وهو داخل بيت الكتب هوسًا آخر بكتب السحر والشعوذة.

بعد إغلاق المكتبة فكر طويلاً - وهو يسير في جزيرة الرمان - حَوْلَ الصراع الذي يشتعل ويخفت، ويظل صادرًا ووارداً في الشوارع والميادين، فقرر أن يبقى وقتًا ملائماً؛ ليتعرف

أبعاد القضية، مع الخطر الذي يمكن أن يحدق به جرَّاء جمعه معلومات، في بلد يشم فيه المرء رائحة الدم في كل شيء حوله، تمامًا كبذور الرمان ورائحته.

مرت ليلة أخرى عليه وهو في الشوارع؛ فافترش أرض الميدان الكبير حتى الصباح، وأيقظه المارة وقد اندلعت مظاهرة صغيرة مقارنة بحجم الميدان، وحينها تدخل ليسأل العامة، ولم يكن مستوى الكتمان عندهم كما هو الوضع في بقية الجزر، كانت روحهم الخفيفة وعقولهم شبه الطائشة تسير أمامهم، وعرف أن الملك أجهض ثورة شعبية ضده، وتلك التظاهرات المحدودة ما هي إلا بقية من زلزال الثورة.

غادر تنتون جزيرة الرمان بعد استشعاره لعدم الأمان فيها، وصل الميناء الكبير، ومن الميناء ركب بغلة الماء التي لامته كثيرا على تدخله وسؤاله؛ إذ ربما يتعقبه أحد من أفراد العسس الشرطي، أو حتى من الأجهزة الحساسة أو النافذة، ناهيك عن المثقفين الفاسدين، الذين يتقربون إلى السلطة، رغم كونهم قدَّموا أفكارًا تقدمية متطورة.

جزيرة التفاح

"إما أن نعيش معًا كإخوة، أو نموت معًا كأغبياء"

مارتن لوثر كنج

***

حملته بغلة الماء إلى جزيرة التفاح، التي تقع على بعد ثلاث ساعات رملية من جزيرة الرمان، وجزيرة التفاح لا يشجع فيها سوى اسمها، فالجزيرة تغلي بالصراع المسلح، ويتقاتل على أرضها أبناء الجزيرة والمرتزقة، ويقود الملك جبهة الصراع الكبرى مع كثير من بطانته وأبناء طائفته، التي لا ترحم، والبقية تقع تحت وطأة العنف، والبلاد خراب.

قال تنتون في نفسه: لابد أن أهرب من جزيرة التفاح تلك، لكن بعد أن أعرف القصة، فسأل وتجرأ وجرى بعيدًا عن هجوم الطيور الديناصورية، التي ترمي النيران على الناس والبيوت بلا رحمة.

علم تنتون قصه الثورة كاملة؛ عرف أن البلاد تعيش في ربقة الأسر والعصا الغليظة، منذ تفتتت الجزر، الملك يتبع طائفة دينية لا يتبعها أغلب شعب الجزيرة؛ فهم ينتمون إلى طائفة دينية أخري، وتعاني الأكثرية تلك من الدكتاتورية

والعنف الممنهج في السجون والمعتقلات، دخل السجون في عهد هذا الملك وبطانته آلاف التفاحيين، وحرموا من خيرات البلاد، ولاذوا بالصمت سنين طوالًا؛ خوفًا من تلك العصا الغليظة، حتى لا يلتحقوا بمن قضى نحبه داخل أقبية الملك وسجونه ومعتقلاته.

ذات ليلة مطيرة تفجرت الاحتجاجات داخل البيوت، وفي مقرات التعذيب، وحول المدن الكبيرة، وخلال الميادين، وأعلن الناس الثورة على الوضع القائم من كبح للألسن، واعتراض علي المعاملة السيئة من قبل شرطة الملك وعسكره، ولكن الملك لم يرضَ لنفسه ولا لبطانته أن يذوق الذل خارج الجزيرة؛ فاجتمع بالسحرة وناشدهم أن يحافظوا على وحدة الجزيرة، وأن يكبحوا جماح الثورة.

صمم الثوار على سلمية الثورة، ولكن النظام الحاكم قمع الثوار، واعتقلت شرطته وعسسه الكثير والكثير من منظمي التظاهرات والقائمين عليها، وقتل كثير من الشباب جراء تحفيزهم للناس على الثورة ضد الملك.

ألَّف قادة الثورة الكثير والكثير من قصائد الشعر تأييدًا لها، وعزفت موسيقاهم الأغاني ضد الملك وبطانته، ولكن السحرة لم يصبروا علي هذا كله، بل خرجت من مكاتبهم

الملحقة على القصر الملكي الكبير التعويذات والتمائم، وخيل للناس في المظاهرات أنهم يسيرون للخلف، وعمَّق الأمر خروج الديناصورات الطائرة التي اختفت قبل خلق الإنسان وهبوطه إلى الأرض بآلاف السنين، ورغم سابق معرفته بخريطة الأرخبيل المفتت، فلا يعرف تنتون أين تقع جزيرة التفاح على وجه التحديد، ولكنها تقع أغلب الظن على حافة الأرخبيل.

تدخلت جزر أخري لحل مشكلة جزيرة التفاح، وسواء أكانت جزيرة المانجو أم غيرها فقد غادر تنتون الجزيرة، ولم يكن هناك حل لمشكلة الثورة؛ فلا الثورة نجحت ولا الملك قضى على الثوار.

جزيرة البرتقال

"الحرية مع الخطر أفضل من السلام مع العبودية"

جان جاك روسو

***

حين ذهابه إلى شاطئ البحر وجد بغلة الماء تنتظره باكية، قالت: خفت يا مولاي أن تصاب أو تقتل؛ فقال تنتون: الحمد

لله على النجاة، وسجد شكرًا علي الشاطئ بحذائها، ثم ركب مجهدًا، وقال: اذهبي بي إلى جزيرة البرتقال، استدارت بغلة الماء إلى الخلف، وحدقت ببصرها الحاد تجاه الأعماق، وحددت جيدًا ببوصلتها التي لا تخطئ مكان جزيرة البرتقال، وسط فراغ لا نهائي من الضباب والأمواج.

كان الاقتصاد الزراعي الذي تبنته الجزيرة بملكها، وسحرتها، وقادتها السياسيين من وزراء ومفكرين، ومثقفين قد أنبت في الأدمغة حبًّا جارفًا للاستقرار.. تتحرك جزيرة البرتقال وفق آلية معينة تقوم على المزاوجة بين قوميتين مختلفتين؛ فقد شاءت الإرادة الإلهية أن يوجد عليها شعبان متباينان، ولكنهما يمتازان بالسلاسة في التعامل، وهذه السلاسة أثمرت أشياء ذات أهمية، مما لا يمكن إيجاده في مكان آخر أو غرسه، وهو التمازج والوحدة لسنوات طويلة.

كانت تلك السنوات كفيلة بتوحيد الجزيرة التي تنشطر جغرافيًّا إلى قسمين، وأصبح الملك طوال تلك السنوات رمزا لوحدتها، ولكن مع الوقت بدأت كل قومية تنتج فكرًا خاصًّا بها مخالفًا لفكر القومية الأخرى، تدريجيًّا بدأت كل قومية يبرز لها مثقفون وقادة سياسيون يناهضون مثقفي القومية الأخرى وقادتها السياسيين، بل وسحرتها.

كعادته في التطفل يلتقي تنتون بمسؤولين في كل الجزر التي يدخلها، وهنا كان الوضع مختلفًا قليلاً؛ فلكل قومية مسؤولوها ومثقفوها وسحرتها، تنقَّل تنتون، وناقش وجادل وعرف واستوعب وفهم، بل كتب وسجل ورصد كل ما رآه، ووجد أن كل ذلك يشير إلى انقسام الجزيرة إلى جزيرتين، والسحرة سيكونون مسؤولين عن توسيع المجرى الملاحي بين طرفي الجزيرة، اللذيْن يزداد اختلافهما عن بعضهما البعض يومًا بعد يوم.

وخلال رحلته البسيطة في شوارع العاصمة عرف أن الشباب والمثقفين في كلتا القوميتين سيثيرون قلقًا في الشارع، واحتجاجات واسعة من شأنها زعزعة الاستقرار، والقضاء على أي أمل في استمرارية الوحدة.

وُزِّعت الأشرطة القماشية التي حملت لون البرتقال، وتناولتها الأيدي، وفشلت شرطة الملك التي كانت تستميت من أجل الحفاظ على الأمن والسلم العام في السيطرة على الوضع، وفور حدوث ذلك الاحتجاج، اجتهد السحرة والمثقفون في شق عصا الطاعة، وإخراج تلك الاحتجاجات إلى مرحلة الذروة والتثوير المتعمد، وشاهد تنتون بنفسه كيف كان الثوار يزرعون ويعلِّقون أشرطة الثورة هنا وهناك، وكيف كانوا يهربون من الشرطة في الوقت المناسب، ولم تستمر الاحتجاجات طويلاً؛ فقد فر الملك

مـن الجزيـرة وتبعـه سـدنة الحكـم، وقـاد المثقفـون في طـرفي الجزيـرة المنقسـمة تغيـيرًا حاسـماً، ورحـل تنتـون بعـد أن تعلـم درسًـا قيـماً.

جزيرة الأرز

"الثـورة مسـتحيلة بـدون وضع ثـوري، عـلاوة على ذلـك، ليـس كل وضـع ثـوري يـؤدي إلى الثـورة"

لينين

***

انطلـق تنتـون في بحـار مظلمـة وعـبر جـزرًا مقفـرة، وجـاع وعطـش فـأكل مـن سـمك البحـر النيِّـئ، حتـى هدتـه بغلـة المـاء إلى جزيـرة واسـعة أكـبر مـن كل الجـزر التـي مـر بهـا جميعًـا، أخذتـه الرهبـة قليـلاً وأكثـر في كـون البلـد – التـي نـزل بهـا والجزيـرة التـي عـبر إليهـا – لا يسـتطيع أحد فيهـا مناقشـة الآراء بحرية، بـل إن كيانًا دمويًّـا غـير مثـالي يسـيطر عـلى الأمور في هـذه البلـدة وتلـك الجزيرة.

سـأل أول مواطـن فيهـا عـن اسـمها؛ فقـال: أنـت الآن في جزيـرة الأرز، نظـر مـن بعيـد فـرأى قنطـرة عـلى نهـر غزيـر المـاء فعـبر

عليها، وتوقف عند منتصفها، ونظر حوله في كل مكان، فرأى النهر الذي يجوز عليه نابعًا من جبل عالٍ، و ماؤه يشبه الزجاج في صفائه والعسل في شفائه، مد تنتون يده فاغترف من النهر غرفة شفت عطشه، وبدا له من البلاد التي نزل بها اتساع فوق اتساع، وتعب من حمل المتاع؛ فلجأ إلى ظل شجرة على النهر، وسبح بخياله إلى الجزر التي أمضي فيها رحلاته متنقلاً، واستوعب قليلاً من كثير في أمر قومه التناتنة؛ حيث إنهم يعيشون معزولين والعهدة عليه، في فقر شديد وجهل أكيد.

أمام تنتون الآن أيام بل أشهر يستوضح فيها النظام السياسي والأمني، وملف الحريات، وملفات أخرى في جزيرة الأرز، ثم إنه لم يتفقد بغلة الماء بعد نزوله الجزيرة، ولا يعلم حجم المأساة التي عاشتها أعضاؤها الداخلية بسبب الإرهاق، والسباحة لأيام معدودة في جنبات البحر الواسع الكبير.

حياه أحد الحراس الشرطيين المسؤولين عن تأمين الجسر، وسأله عن هويته فلم يجد شيئًا يثبت شخصيته، فاقتادته الشرطة إلى المخفر؛ حيث النظام الأمني شديد الانضباط والتحكم، والواعي لسيطرته على مقدرات الأمن وشؤون المواطنين، وبعد استفسار كثير ونوم قليل عرف المحققون أن تنتون:

• قادم من الجهة الأخرى من العالم التي لا يشبع فيها جوعان، ولا ينام فيها ضعيف، ولا يسلم فيها خائف.

• تحمله دابة سحرية عظيمة الجرم اسمها بغلة الماء.

• يبحث عن حل لمشكلات قومه التناتنة، وجزيرتهم المتنة.

• زار جزرًا مختلفة الأحجام، واستوعب تجربتها وثقافتها ونظامها الاقتصادي والسياسي والأمني بل والاجتماعي.

• فر من الملاحقات الأمنية في بلاده، حتى غادر جزيرة التناتنة، التي ربما يتوفر عنها هنا ملف استخباراتي شديد الغموض.

• يثق فيه أهله وقومه ثقة كبيرة، لكونه يتمتع بقدرات عقلية ونفسية وجسمانية قوية إلى حد كبير.

• أكثر شباب التناتنة ثقافة وأغزرهم من حيث المادة العلمية، تحمل الكثير والكثير من القلاقل والضعف البدني، الذي وصل إليه عند ركوبه البحر وزيارته الكثير من البلاد والجزر.

• شارك بني قومه طموحاتهم حتى أصبحوا يحبونه حبًّا جمًّا، ويتمتع بمكانة عاطفية كبيرة بين أترابه.

حقيقة أفرجت السلطات عن تنتون، ولكنها لم تترك له الحبل على الغارب، فقد وضعته تحت التحري والمراقبة الدائمين، وعبثًا حاول الفرار منهما، ولكنه لم ينجح في ذلك حتى حين مغادرته لجزيرة الأرز.

انطلق فور الإفراج عنه متجهًا إلى مقر الحزب الحاكم، الذي لا يوجد حزب غيره في البلاد؛ وجد الأعلام، واليافطات الحمراء، وسنبلة الأرز، والترس تملأ مقرات الحزب الأحمر في جميع أنحاء البلاد التي زارها، ودخل في مناقشات ومحاورات مع مفكري الحزب، ولم يظفر بإجابة سوى عن سؤال واحد: أين الله؟ الله لا يوجد هنا ولا في أي مكان آخر.

لم يصطدم تنتون مع مفكري الحزب، ولكنه أراد الفوز بأطروحة أو حل اقتصادي لمعلميه من التناتنة، الذين أولوه هذه المهمة منذ البدء ووثقوا به، وهنا كان عليه أن يزور مزارع الأرز التي تمتلئ بها البلاد.

كان يعرف جيدًا أن الجزيرة لا تزرع هذا المحصول تحديدًا، أو تكثر منه سوى لأهداف إستراتيجية بعيدة المدى، منها سيطرة جزيرة القمح على قطاع كبير من الهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية، على أنحاء الجزر المفتتة، وكذلك اضطلاع جزيرة المانجو بالهيمنة الأمنية والعلمية على أبحاث متقدمة ومتطورة وذات طابع شديد الخطورة.

بإيعاز من الجهة السيادية التي يخضع تنتون لمراقبتها وتحريكها، دُعي الرجل الغريب إلى حفل على شرف الحزب الحاكم، وخلال الحفل أتيح له الحوار والمناقشة بحرية محدودة مع بعض رجال الحزب، ولم يكن خفيًّا أن الطابع الأمني يهيمن على اختيار أعضاء الحزب لتلك المناقشات؛ حيث يعمل بعضهم أو كثير منهم مباشرة تحت هيمنة الأجهزة السرية.

قال تنتون لأحدهم: لماذا يرتبط الحزب الحاكم أو شعاره بالدولة ككل؟

أجاب الرجل ذو الزى المتواضع، والذي تبدو عليه سيماء النجابة والثقافة:

نحن نعيش في دولة كبيرة؛ أي نعم، هي توفر المأكل والمشرب لقطاع كبير من السكان (المواطنين)، ولكنها أيضا تحتاج إلى التفوق العسكري في مواجهة التطور المستمر في الآلة العسكرية لجزيرة القمح، التي تعيش الدور الذي تفكر فيه الآن، والذي يحمل سؤالك مغزًى ما حوله (وهو الفصل بين الدولة والحكومة، والدولة والأحزاب، والفصل بين السلطات).

(في حوار آخر): لماذا لا أرى الأجهزة العسكرية، أو الجيش وتجلياته في أماكن كثيرة، كما رأيت في أجزاء من جزيرة القمح وجزيرة المانجو؟

أجاب المحاور: جزيرتنا تطبق سياسة شديدة السرية فيما يتعلق بالإنفاق العسكري؛ حيث إن عدد الأرزِّيِّين كبير، ونحن أمة ناشئة فكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا.

دخل تنتون في حوار شيق مع كثيرين حول جدوى المصانع في بلد يعمل سواد أهله بالزراعة، ولكن بعد السماح له بالتجول في أنحاء الجزيرة باستخدام طائرة خاصة، عرف تنتون أن الصناعة متطورة جدًّا في تلك الأنحاء، كما أن المصانع ظهرت فوق الأرض واضحة للعيان.

عنا لتنتون أن يصعد الجبال؛ حيث تنبع الأنهار وتملأ البلاد بالخيرات، ولكن ما من طائرة ولا وسيلة مواصلات سمحت له بذلك، وبدأ يتشكك في الأمر: لماذا تكره وسائل المواصلات الصعود إلى هناك؟ وعرف أن الأمر يتخطى كون المنطقة مليئة بالسدود أسفل الجبال، وأن الأمر يتعلق بالمثقفين شديدي التمرد، وصمم على صعود الجبل، فأخذ عدته وسار في اتجاه معاكس للنهر.

كلما طالت الرحلة صعودًا ازداد إرهاقه وازدادت معاناته النفسية؛ حيث لا أحد يؤنسه ولا شيء يسليه، بعد فترة بدأت الأكواخ التي بناها المثقفون للعزلة عن المجتمع تظهر من بعيد الواحد تلو الآخر، حتى رأى أعدادها بالمئات، تزدحم كلها حول مجري النهر وحول المنابع في أعلى الجبل.

بـدأ تنتـون في إقامـة روابـط بينـه وبـين أصحـاب الأكـواخ، ولم ينجـح فقـط في إقامـة علاقـات معهـم، بـل بـدأ بعـد مـدة مـن الزمـن يقلـد معاشـهم فبنـى كوخًـا مثلهـم، وتعلـم أسـلوب حيـاة جديـدة لم يكـن يعرفـه في مملكـة جهنـم، لا شيء غـير متـاح هنـا، كل شيء متـاح المـاء والطعـام الصحـي والجـو الجميـل والمناظـر الخلابـة؛ حيـث يصعـد الفكـر إلى سـماء لا متناهيـة، وتقـترب القلـوب مـن بعضهـا؛ حيـث لا يوجـد نـزاع أو مطامـع، أو هكـذا ظهـر لـه في بدايـة الأمـر.

مـرت الأيـام سريعـة عليـه؛ فهـو في عيـش رغيـد لا ينفـد فيـه رصيـد الإنسـان مـن الحريـة أو المـأكل أو المـشرب، ولا يـكاد يـزور كوخًـا إلا ونزلـت عليـه مـكارم الضيافـة أيًّـا كان وقتهـا، وفي أثنـاء تلـك الزيـارات دارت مناقشـات كثـيرة.

حول الإنسان

(الغاية والهدف من وجوده)

تنتون: لماذا وُجِدَ الإنسان؟

المثقفون: وُجد لهدفين؛ الأول: استمرارية الخلق من قبل الإله الأعظم ذي الإرادة المطلقة، والثاني: تعمير الأرض وتسخيرها للأجيال الإنسانية.

تنتون : هل يخضع وجود الإنسان للجبر أم الاختيار؟

المثقفون: البعض يقول: للجبر والآخرون يقولون: للاختيار، أما نحن فنترك الأمر للخالق الأعلى.

تنتون: هل تعبدون الله خالق الإنسان وموجده؟

المثقفون: نحن حين اعتزلنا قومنا ونظامهم الدموي الصارم، اعتزلناه لنعبد الله خالق الإنسان وموجده بحرية، ودون شك: قومنا لا يعبدون الله ولا يؤمنون بوجوده.

تنتون: ما الغاية من وجود الإنسان؟ وكيف آمنتم بوجود الله؟

المثقفون: نحن نقول بأن الغاية من وجود الإنسان هي عبادة الله وتعمير الأرض، وبعد ذلك الصعود إلى عالم أعلى

وأرقى بعد الموت، وقد آمنا بوجود الله من الكتب السماوية التي نزلت على بشر متفردين بنعم وقدرات ومواهب فذة وعبقرية، جعلتهم مثلاً يُحتذَى ونبراسًا للأمم.

تنتون: وهل يستحق هؤلاء البشر الاحترام والتقدير عندكم، حتى لو اختلفت درجات إيمانكم بهم؟

المثقفون: نعم بكل تأكيد، ورغم التنوع الإيماني الذي يجعلنا ننتمي إلى ديانات مختلفة وملل متنوعة، نقدر بعضنا البعض، ولا يعتدي أحد منا على الآخر؛ فنحن ننتظر الصعود إلى مكان أفضل وأرقى من هذا العالم وهو الفردوس.

تنتون (في صوت خفيض): متى وصل الحزب الحاكم إلى السلطة؟ وكيف؟

المثقفون: وصل الحزب الحاكم الآن إلى السلطة بعد ثورة دموية على النظام والوضع القديم الذي كان يقدس الخرافة، ويفرط في التدين الكاذب، ولا يتورع عن هتك الأعراض وانتحال المناصب والقيادات، وسرقة مجهود الآخرين.. وهذا وغيره كان مسؤولًا عن اندلاع الثورة، بعدما تؤمن بأن إرادة الله بدءًا كانت وراء ذلك ثم إرادة الشعب نفسه، لكن الشعب لم يكن يتصور أن تدشن الثورة للوضع الحالي شديد الصرامة، والذي يدفع أي أحد ثمن وقوفه ضده من دمه، وقد سبق

وتحركت آليات عسكرية وسحقت عظام بعض المثقفين دون أن تدمع عين أو يَرِقَّ قلب لحالهم.

تنتون: هل هذا هو السبب في عزلتكم الحالية؟

المثقفون: هذا هو السبب وراء فرارنا إلى هنا، ونحن نعرف أن النظام يتجسس علينا، وأنه ربما يكون قد زرع بيننا جواسيس ليسحقنا في الوقت المناسب، إذا فكرنا عمليًّا في تدشين ثورة ضد ثورته الملحدة.

تنتون: هل هذا يعني أنني في خطر الآن؟

المثقفون: لا تكن ساذجًا، فأنت تحت مراقبة الأجهزة السرية منذ لحظة الإفراج عنك وإلي الآن، وربما يكونون على علم بما نقوله وما تقوله، لسنا بعيدين عن قبضة النظام القائم، ولن ترحمنا ثورتهم الحمراء إذا عملنا على الإطاحة بالحزب الحاكم؛ فقد سبق وانتصر وهو أقل عددًا وعدة على نظام أشد صرامة وحزب أكثر شراسة.

في آخر ليلة له زار تنتونَ رجلٌ تبدو على محياه سيماء النجابة على شاطئ النهر، وطلب منه أن يرتدي الملابس التنكرية التي أحضرها، ولعله ينجو من مذبحة قادمة تكون عناصر هذا المكان ضحيتها، وقد سبق وذبح الثوار الحمر آلافًا من المدنيين

والمواطنين العزل، جراء تقارير تفيد بجنوح هذا الفصيل أو ذاك عن الخط الطبيعي للثورة والثوار.

كان تنتون قد دون ملاحظاته ونقل بعض التقارير، التي تفيده فيما بعد عن الثورة والثوار، وكان عليه أن يغادر شاطئ البحر مع أول بصيص نور وأول شعاع شمس؛ لأن عملاء الجهاز السري ينتشرون في كل مكان، وليس هناك فرصة للفرار سوى بهذه الطريقة، ارتدى تنتون الأزياء التنكرية، وحمل معه الرقوق والملاحظات، والتقى بغلة الماء التي نال العطب بعض أجهزتها الحيوية.

تعقَّبت القوات البحرية تنتون وهو على ظهر بغلة الماء، ولكنها - ورغم الإرهاق الشديد والمرض الجديد - سبحت بسرعة في الماء حتى أفلتت من كل المطاردات، ودخلت به المياه الإقليمية لجزيرتي التوت والليمون.

جزيرتا التوت والليمون

"كل ما هو عظيم وملهم صنعه إنسان عمل بحرية"

أينشتين

***

بلغ الإرهاق ببغلة الماء مبلغه، وحاورت تنتون حول ما هي فيه من الإرهاق، وأوصته - ودمعة تترقرق في عينها - أن يبحث لها عن الترياق المسحور في جزيرتي التوت والليمون؛ حتى لا يمتد المرض معها إلى الموت.

تقع جزيرتا التوت والليمون في الطرف الأقصى من أرخبيل الجزر المفتتة، وشاءت إرادة الله أن تحتوي الجزيرتان على مواد كيماوية نادرة، بما في ذلك المواد اللازمة لصناعة الدواء، واستفاقت الجزيرتان على إنشاء بعض العباقرة من مواطني الجزيرتين لمعمل متخصص في صناعة الأدوية، لكن ذاع صيته وشهرته كمستودع لأخلاط السحر الأسود والأبيض والأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، وكانت الجزر كلها بما فيها جزيرة القمح وجزيرة الأرز ترسل مبعوثيها إلى الجزيرتين؛ لاستيراد كميات هائلة مما يسمى في أجزاء أخرى سحرًا، وخصصت لذلك آلاف الأوقيات من الذهب، تحت بند الإنفاق على

الصحة العامة والمستشفيات، وبدائل العلاج النفسي والعصبي لعمال المناجم والمحاجر.

اجتهدت سيدة كبيرة السن والمقام تعمل في مجال التحاليل الطبية، وطبيب جليل القدْرِ في نشر الثقافة الطبية في أنحاء الجزيرتين، وبعد إيفاد عدد قليل من الطلاب إلى جزيرة القمح المتقدمة في كل المجالات، أصبح هناك ما يعرف بالكادر الطبي، الذي يقع تحت رعاية الملك الطيب مباشرة، وهنا تسربت إلى الجزيرتين تباعًا أسرار الطب وعلومه، وكثرت مراكز التحاليل الطبية، وانتعشت صناعة الطب والدواء حتى أصبح للجزيرتين سمعة ممتازة في هذا القطاع.

وَعَتِ الجزر الأخرى أهمية وضع الجزيرتين من ناحية الاستثمار في صحة الإنسان، فأرسلت تستورد منها كميات هائلة من الأدوية، واعتبرت الجزيرتان ذواتيْ وضع سياسي واقتصادي ممتاز، بعد تزويد الملك لهذا القطاع عمومًا بالدعم الكامل.

أنتجت جزيرتا التوت والليمون أدوية متنوعة، وحازت تلك الأدوية على شهرة واسعة، بعدما عالجت حالات كثيرة وأمراضًا عضالًا في الجزيرتين نفسيهما، ومن تلك الأدوية:

- ترياق الكبد السحري: وهذا الدواء نجح في علاج حالات التليف الكبدي الشديدة، ودوخ أساتذة الطب في جميع

الجزر، وعلي رأسها جزيرتا القمح والأرز، اللتان تنفقان بسخاء على الرعاية الصحية ومختبرات وشركات صناعة الأدوية.

- ترياق القلب السحري: وهو دواء شديد الفاعلية لعلاج ترسبات الشريان والصمامات: كما أنه فعال جدًّا إذا أضيف إلى الأغذية الخاصة بمرضى تجلط الدم، وشأنه في ذلك شأن الأدوية الغالية الثمن، التي تصدرها جزيرة القمح إلى الجزر الأخرى.

- ترياق ٢ السحري: نجح هذا العقار في علاج حصوات المرارة والكلى والبروستاتا، ويُعتقد أن الجزيرتين تنتجان هذا العقار بكثرة.

- ترياق ٣ السحري: جاء هذا العقار لتأكيد التراجع المذهل لسوق السحر الأسود والخرافات والشعوذة، التي كانت تملأ أرجاء الجزيرتين، وعلى أثرها اتهمت الجزيرتان بالجهل والتخلف، وبسببها كان نفوذ السحرة يمتد من أسفل القاعدة الاجتماعية، وحتى ذروة الهرم الاجتماعي داخل قصر الملك ذاته (علاج نفساني).

- ترياق ٤ السحري: وهذا العلاج يعاد إنتاجه تحت أسماء كثيرة، وهو فعال في تنشيط الدورة الدموية، وعلاج الضعف الجنسي، ونظرًا لشهرته، والعائد المادي من ورائه، أقرت له حكومة الجزيرتين والقطاع الخاص فيهما دعماً إعلاميًّا خاصًّا، وفتحت له نافذة على العالم.

حققت منتجات الجزيرتين نجاحًا كبيرًا، بعد نجاح الأطباء والصيادلة في إجراء اختبارات متطورة على الدواء المستخلص من النباتات والأشجار الكبيرة (التوت والليمون).

نجح تنتون في الدخول إلى إحدى الشركات الكبيرة، وأخبرهم قصة مختلقة عن تعرض دولفين الماء خاصته لاعتلال جسدي في الأجهزة الداخلية، وأخبرهم أنه من أنصار البيئة، فأعطوه ترياقًا سحريًّا، أو هكذا وصفوه، كما هو في السابق، ولم يفته أن يمر على شركات الجزيرتين، واحدة تلو الأخرى، ليعلم أن الجزيرتين قامتا بثورة، لكن هذه الثورة مختلفة، لقد عانت كلتاهما من الجهل والمرض والتخلف، ففضل المثقفون تحفيز الجزيرتين على ثورة علمية؛ لإزالة ركام الجهل والمرض، وثورة الطب إحدى تجليات هذه الثورة.

جزيرة اللوز

"قومي من حزنكِ..
إن الثورة تولد من رحم الأحزان"

نزار قباني

***

رحل تنتون عن جزيرتي التوت والليمون، بعد أن تناولت بغلة الماء الترياق السحري وشفيت، وحاصرتها الأمواج العالية قبل أن تنجح في عبور الدوامة الكبيرة إلى مركز الجزر المفتتة لزيارة جزيرة اللوز، وما أدراك ما جزيرة اللوز.. زهورها وما أجمل! وعطرها وكأنك لم تشم عطرًا! وهيهات هيهات أن تهدأ جزيرة اللوز، تموج بالثورة والثوار، لا تنام ليلا ولا يتوقف فيها الحراك نهارًا (حراك ثوري).

لا تنتظره بغلة الماء كثيرًا وإنما تدخل إلى اليابسة، وكانت في السابق لا تدخلها، ولأنها شعرت بالأمان فقد اختبرت حراك الثورة على أصوله، الجماهير في كل مكان، والملك يخطب في الناس من خلال زجاجة سحرية ضخمة في وسط الميدان الكبير.

قدمت فئات الشعب كلها بيانات أذاعها السحرة في كل مكان، وسرعان ما اكتشف تنتون أن جزيرة اللوز مختلفة في تفاصيلها الدقيقة والكبيرة عن بقية الجزر.

بيان الطبقة العاملة:

"استشعارًا منا بالخطورة التي مثلتها السياسات الخاطئة، سواء في التجارة أم الصناعة، فإننا نعترض لدى جلالة الملك المعظم على تخفيض الأجور، وهدم الصناعة الوطنية، وفتح أبواب الاستيراد، ومحاربة العمال في قوتهم وأرزاق أبنائهم، هي الثورة لا محالة.. هي الثورة.. تحيا الثورة".

بيان الطبقة الوسطي:

"بعد أن استشري الفساد، وعمَّ الطغيان، انحاز السحرة لصف الشعب، مع أنهم سبب الفساد الحالي، الطبقة الوسطي تعتبر ما يحدث في الميدان الكبير تعبيرًا عن تطلعاتها لمستقبل أفضل لجزيرة اللوز، لا يكون الاحتكار صاحب قدم فيه.. هي الثورة.. تحيا الثورة".

بيان المثقفين:

"تساءلنا كثيرًا - وقبل أن تخط الأقلام هذا البيان: هل تخطينا بلوانا القديمة في هذا الوطن، الذي كان يطمح آباؤنا وأجدادنا

في الحفاظ عليه كجزء من كيان المملكة القديمة الكبيرة؟ تبين لنا أننا في وضع لا نحسد عليه، فرغم ارتباط الوجدان بالجزر الأخرى، فإننا لا نعتبرها وطنًا، وإنما هم أبناء عمومتنا..

تقع مشكلاتنا في حيز ضخم كبير هو الجزر المفتتة، ونحن لم نرتقِ بعد، لنتجنب أخطاء كبيرة وقع فيها أبناء الأوطان الأخرى، أو لنستفيد من إصلاحات ثورية قام بها أبناء أوطان أخرى.. بل نحن توقفنا عند عبادة الإله الدكتاتور، الذي يعبده اللصوص والخونة والعملاء.

إن المثقفين الذين يرون في أنفسهم قادة لمشروع جزيرة اللوز الثقافي، يستمدون دوافعهم من أجل هذا المشروع من السدنة الأولين، ونعني ذلك جدودنا، الذين ركزوا مصلحة البلاد في المراهنة على المستقبل، وها هو المستقبل يتحول إلى مشروع ثورة.. هي الثورة.. تحيا الثورة".

تدريجيًّا تضامنت الأقاليم مع العاصمة، وأُحرِقت مبانٍ تابعة للحكومة، وهوجمت مخافر الشرطة، وانتشر السلَب في كل مكان، ولم يعد هناك بد من السماح لعجلة التغيير من المرور بشوارع جزيرة اللوز، فانطلق فيها الشباب يهتفون باسم الثورة وقادتها المثقفين، الذين تواروا خلف الظلال، بعدما بذروا بذور الثورة في كل مكان، وجلسوا يجنون ثمارها على مهل.

يعود مشروع جزيرة اللوز الثوري إلى ما يقرب من نصف قرن؛ حيث راهن المثقفون وقتها على الوقت، بحيث تندلع نيران التغيير بعد خمسين عاما، أو بعدما يموت الملك، والذي كان مثالًا للدكتاتور الشرير، الذي أصبح لديه من الإمكانات ما يؤهله لاقتصاص الرقاب، وأن يضع في غياهب السجن من لا يحب ومن لا يهوى.

في عهد ذلك الملك تحولت السياسة إلى ترف عقلي، أو إيذاء لمشاعر العقلاء والساسة على السواء؛ فلا شيء يخرج إلا من يده، ولا شيء يشابه تطلعاته الخفية، وقد ترك ذلك الملك أولئك الشياطين والمردة، الذين ينهبون ثروات البلاد، يرتعون في خيرها وتحت حمايته المباشرة؛ مما أثار حنق الأغلبية الساحقة من الشعب وضرب الطبقة الوسطى في مقتل، ومن ثم انحل عقد المجتمع تدريجيًّا.

واضطرب أمر البلاد وعمت الفوضى، وصار كل ذي عقل طائشًا، وكأنَّ إعصارًا يمر بأدمغة الناس فيدوِّخها، وتصبح عاجزة عن محاورة المنطق السليم، ومن أدنى درجات السلم الاجتماعي إلى أعلاه، وجدت آثار للثورة على عقول الناس، فلا السائر يعرف أنه نائم، ولا القاعد يعرف أنه توقف عن المشي، هي الفوضى التي تندلع في العقول والشوارع ويتعوذ منها الكبير والصغير.

خلال ذلك أسلمت الشرطة عنان الأمور للمواطنين، وبلغت القلوب الحناجر حين هرب المجرمون من السجون، وتفلتت البلاد تدريجيا من أجهزتها، وزاد الخطب بمهاجمة مجهولين من خارج الوطن لجهات سيادية ذات مستوى خطير، ولم يعد أمام الجزيرة التي تنوح نساؤها وصغارها سوى أن تستعين بحماة الحدود للذود عن الأعراض، ومكافحة الجريمة وإيقاف الفوضى.

ورغم كل ذلك لم يتوقف الثوار عن إعلاء قيم الثورة وأهدافها، بل زادوا على ذلك في تنظيم تظاهرات ضخمة في كل مدن اللوز، وظل الملك يخطب في الجماهير شهرًا كاملاً، وأصر الثوار على مواصلة التظاهرات النهارية والليلية، وأصبحت البلاد على وشك الانفجار، بعد أن جنَّد الملك - ضد الشعب المتظاهر والمطالب بحقوقه - زبانية مقنعين متخصصين في إحداث الفوضى.

وتنتون وسط كل ذلك كله تدفعه الصفوف، ويلتحم معها وكأنه واحد من الشعب، يسجل ما يشاهده ولا يتراجع بعيدًا، بل يظل قريبًا من كل مظاهرة، وترك العاصمة وذهب إلى المدن الأخرى، مستبدلاً في كل مرة رداءه، ومحاصرًا كما يحاصر الثوار بين جيوش المقنعين، التي تأكَّد صدق خروجها من السجون خصيصًا لقمع ثورة اللوز، وظل يهتف وسط جموع المثقفين

وممثلي الطبقات والكتاب والشعراء والعمال والفلاحين: هي الثورة.. تحيا الثورة.

ولكن الملك لم يملَّ من مقاومة الثورة بجنوده وزبانيته، ووقع الثوار في حيص بيص؛ إذ لم يعد أمامهم بعد هذا الظهور والإخلاص والتجمع، سوى خوض معركة مع الأسود المفترسة والنمور الشرهة والفهود فائقة السرعة، التي أطلقها الملك لتهاجم الميادين والثوار في كل مكان، وهرب الثوار باتجاه البحر، ومعهم تنتون، ولم يكن الوقت مواتيًا لحماة الحدود أن ينقذوا الثورة ولا الثوار، فغرق عدد كبير منهم وهم يسبحون في البحر، والباقي افترسته الأسود، وهذا الحدث أثر على مكانة الملك، ليس فقط أمام اللوْزِيِّين، ولكنه أثر على سمعته في الجزر جميعًا، وحتى في جزيرة المانجو، التي تطبق نظامًا صارمًا على مواطنيها.

جزيرة الخوخ

"الثورة مثل الرواية أصعب جزء فيها كيفية إنهائها"

أليكسي دي تشينجل

فيلسوف فرنسي

***

راح الآلاف ضحية المذبحة، واضطر تنتون إلى مغادرة الجزيرة حزنًا على الثوار، ولم يعد أمامه في رحلته تلك – كما اعتقد– سوى جزيرة الخوخ، ولم يكن الوقت مناسبًا لإجراء حوار مع بغلة الماء، فأرخى لها العنان وجعلها تسبح باتجاه أطراف الجزر المفتتة، وحانت منها نظرة باتجاه الأفق الذي تشرق منه الشمس؛ فوجدتها تطلع على قوم أصحاء البدن والعقول؛ فهبط إليها صباح يوم مشرق وجميل، فوجد أهلها أخلاطًا من الغرباء وأهل البلد، ولا يعرف أحدهم سوى قبيلته، ونتيجة لهذا الوضع صارت هناك صعوبات في إدارة المآزق السياسية والتفلت الأمني، وهكذا صارت للأطياف السياسية كلها مصالح تتناقض ولا تتفق مع بعضها البعض.

ومنذ زمن ليس بالبعيد سقطت البلاد في مستنقع الحرب الأهلية، وسقطت ضحايا بعدد العصافير التي تربض في أشجار

الخوخ، وانقسمت البلاد إلى شيع وفرق متناحرة، بعضها يدير المذابح، وبعضها يجيد التشهير، والبعض الآخر يعمل لحساب آخرين خارج الجزيرة، وهؤلاء كوَّنوا مع الوقت طابورًا خامسًا يغذي بفكره وأمواله الانقسامات والتطاحن، ويسعى لتدمير السلم والأمن العام، ويقتنص الفرص لإقامة المآتم، يقتل في الخفاء، ويسرع للعزاء في وضح النهار.

أما التنظيمات الأساسية اليمين والوسط واليسار، فقد دشنت معارك صغيرة على نُطُقٍ ضيقة لحماية كياناتها، والوقوف أمام محاولات ابتزازها من قبل الكيانات المعادية في مراحل الانفلات الأمني.

جيش جزيرة الخوخ جيش ضعيف؛ نظرًا لما أحدثته الإثنيات و الطوائفية من كسر وشروخ في هيكله الداخلي، فلم يعد جاهزًا للوقوف أمام التمزقات التي عصفت بالجزيرة، وآثر قادته الابتعاد عن الاعتراك الداخلي، وتجنبوا آثار الاحتراب الأهلي، الذي أضعف الجبهة الداخلية على نطاق واسع.

تعرضت الجزيرة لمزيد من الاعتداءات من قبل قراصنة وميليشيات خارجية، أسهمت في زعزعة الأمن والسلم العام، ثم تآمرت على الوطن كله؛ ليقع فريسة الاستعمار الذي يجيء من البحر المظلم دون انقطاع، وقد رأى تنتون وسمع بالمكتبات التي يتوجس أصحابها من فتحها، بعد التهديد المتتابع من

قبل ميليشيات وجماعات مجهولة بتفجير الشرايين الثقافية، التي بدأت تمد الوطن (جزيرة الخوخ) بالرؤى، والأفكار، والمعلومات التي تساعد على لم الشمل و إنهاء الحرب الأهلية.

بعد مدة ليست بالوجيزة بدأت نيران الحرب تخمد بعد أن هُتِكت الأعراض، وسرقت الأموال، وأريقت الدماء؛ فاستبدل الفكر بالاحتراب، والقناعة بالطمع؛ وأصبح الخوخيون أكثر إيمانا بالسلام، وأسرع إلى مقارعة الخصوم؛ الحجة بالحجة والبرهان بالبرهَان، وهذه هي الصورة التي وجدهم عليها تنتون قبل أن يرحل.

جزيرة اليوسفي

"الإسلام الحق هو الذي يقدم للعالم معنى الحياة"

روجيه جارودي

***

لم يكن في ذهن تنتون حين رحل عن جزيرة الخوخ أن هناك أرضًا بقيت، وجزيرة من الجزر المفتتة لا تزال بعيدًا عن نظره ولم

يزرهـا، وقـد كان للحـظ نصيب حين انحرفـت بغلة الماء عن مسـارها نتيجـة الإجهـاد الشـديد، وبعـد مـد وجـزر لاحـت في الأفـق تحـت قـرص الشـمس جزيـرة اليوسـفي أجمـل الجـزر المفتتة عـلى الإطلاق.

جميلـة تلـك الجزيـرة فأمـا هضابهـا وجبالهـا وسـهولها فـلا تسـألني عـن خضرتهـا وأشـجارها! وأمـا ماؤهـا فالبلـور الصـافي! وأمـا نسـاؤها فخِفَـار! وأمـا رجالهـا فهادئـو الطبـاع.. يعطـون ولا يمنعـون، ويسـقون كل وارد ويطعمـون كل جائـع! وقـد كان مـن أسـباب ذلـك الرخـاء وذاك النعيـم أن الملـك التفـت إلى الزراعـة فطورهـا، وإلى ديـن النـاس فجعلهـم عـلى المحجـة البيضـاء، يقـول أحـد مفكريهـم: "لـولا التفـات الملـك إلى الإسـلام واتخـاذه دينًـا لمـا صفـت نفوسـنا، ولمـا تطـورت عقولنـا"، ويقـول آخـر: "إن الإسـلام كان وراء ثـورة اجتماعيـة جعلـت الحيـاء هـو الخلـق الأسـاس للنـاس، رجـالًا ونسـاءً أطفـالًا وشـيبًا".

تـرى هل كان الإسـلام فعـلًا وراء الثـورة الاجتماعيـة التي صفت العقـول والقلـوب في جزيـرة اليوسـفي؟! نعـم هـو ذاك، فإنـك تـرى آثـار تلـك الثـورة الاجتماعيـة في سـلوك النـاس واسـتضافتهم للغريـب، كـما فعلـوا مـع تنتـون؛ فإنهـم أوردوه أجمـل الأماكـن، وتنازعـوا فيـما بينهـم أيهـم يسـتضيفه في بيته، وحـين تيقنوا مـن طبيعة مهمتـه وصراحتـه معهـم رفعـوا أمـره إلى الملـك، فأكـرم وفادتـه.

كانت تلك الجزيرة هي الجزيرة الوحيدة التي جمعت بين محاسن الطبيعة ومحاسن أهلها؛ فإن جميع ما في جزيرة اليوسفي جميل وباهر، واليوسفيون كما هو حال ملكهم أجمل الناس صورة، وأحسنهم طلعة، وتشعر أنهم شامة في الناس، يقتدون بملك عادل قوي مهاب جميل الصورة شفيق عليهم وعلى أبنائهم، ولا أحد هنا من اليوسفيين تقتلع أشجاره ولا أسرة يعتقل عائلها، وقد خلت السجون من النزلاء، وصفت القلوب والعقول للزراعة والعبادة.

ولا تجد بيتًا من بيوتهم إلا وفيه القرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار، وقد حصنوا أنفسهم من شياطين الإنس والجن، فلا يطيعون إلا الحلال، كما أنهم يعصون الحرام، ويتضرعون إلى خالقهم؛ فلا هم زناة، ولا سراق، ولا مرابون.

خلال جلساته معهم تحرك في تنتون الشغف للوصول إلى لب الحقيقة، وأحب أن يعلم أكثر عن دور الإسلام في تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فسأل ذات ليلة مستضيفه - وكان شيخا مُعمَّما متوسط اللحية: هل تحكمون هنا وفق شريعة الإسلام؟

فقال الشيخ المعمم: نعم، وتظهر تجلياتها في جمع الزكاة من الأغنياء، وتوزيعها في مصارفها الشرعية على الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات.

قال تنتون: دار في خلدي منذ ناهزت البلوغ أسئلة كثيرة، حول معنى الحياة والجدوى من خلق المخلوقات والناس، وارتفاع السماء بحيث لا تبلغ، وتفكرت في ملكوت السموات والأرض.

قال الشيخ المعمم: إننا متفقون جميعًا على الإيمان بفناء الدنيا، وأن الأرض ومن عليها يرثها صاحبها ومالكها؛ فليس لبشر أن يخلد فيها، يستوي في ذلك النبي والقديس والقوي والضعيف، والمرأة والرجل، كلنا فانون وليس باقيًا غيرُ الله.

واستطرد: النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - بلغ السماء عزًّا ومجدًا، وقد بلَّغ رسالته وأدى أمانته.

طاب العيش لتنتون في جزيرة اليوسفيين شهرًا كاملاً، ثم أخذه الحنين لوطنه، فودع الذين استضافوه وحياهم، ولكنه لم يدوِّن عن الجزيرة شيئًا، واكتفى بأن وعى في قلبه الحب و الجمال والمعرفة بالله، ورغم كونه تعلَّم وتدرَّب في مملكة جهنم على أيدي معلمين أفذاذ، فإنه دان لمملكة اليوسفيين بالفضل في تعليمه موازنة الحياة بين الشدة والضعف، والعمل والعبادة، والجبن والتهور، والكبر والمهانة، كل ذلك وعاه قبل أن تحمله بغلة الماء إلى طرف العالم الخفي، حيث تقع مملكة جهنم.

الفصل الثالث

الثـــــــورة

أيا جيل الهزيمة.. هذه الثورة

ستمحو عاركم وتزحزح الصخرة

وتنزع عنكم القشرة

وتفتح في قفار حياتكم زهرة

وتنبت أيها الجوف الصغار برأسكم فكرة

سيغسل برقها هذي الوجوه وهذه النظرة

ستصبح هذه الحسرة جسورًا وقناديل

زهورًا ومناديل

ويصبح باطل الحزن أباطيل

عبد الوهاب البياتي

سفر الفقر والثورة

***

وصف ما رأي تنتون في البحر المظلم

حين عاود تنتون الإبحار، واصلاً الليل بالنهار، راكبًا في البحر المظلم بغلته، منهيًا بعد تعب رحلته، رأى جميع ما يبهر العين، في جو من السحر عجيب، ومشهد أسطوري غريب، لاحظ الجن تأكل الحيتان والقروش، وعاين قرودًا تعيش في وسط الأمواج، وتركب صهوة الماء، ورأى السفائن الضخمة كالجبال، تطفو بسرعة فوق الخيال.

ثم إنه وجد الماء العذب السلسبيل يتفجر عينًا بعد عين، وسط ماء من الأملاح شين، فروى من العطش غلته، وأطعم من اللذائذ نفسه وبغلته، ولم يجد بعد الأرخبيل جزرًا ولا جبالًا؛ فلم يعر لذلك اهتمامًا ولا بالًا، فقد أدرك من رحلته كل جديد، وعرف القريب والبعيد، فبلغ ما يبلغ الصوفي المريد، حين يتخطى مرحلة التقليد.

وحين استوى في وسط ذلك الملكوت، بين عفريت وحوت، رأى الدوامات الواسعة تجذب إليها كل متحرك.. صغيرًا كان أم كبيرًا؛ فلم يقترب منها كائنه الخرافي، وأفلتت منها كما يفلت الجمل في الفيافي.

ولما اقترب من البوابات السوداء، وانفتحت أمام نور بغلة الماء الساطع، أدرك أنه على مشارف وطنه، وأن كل الإجهاد

والأرق والتعب تلاشى تمامًا بعد سبع ليالٍ وثمانية أيام قضاها في البحر، وعلا شهيق بغلة الماء، وهي تدخل باتجاه الميناء، وأخذته رهبة من دخول المملكة؛ إذ لم يكن يعلم أن ملكًا آخر قد تولَّى، وأن عهد أبيه قد ولَّى، ولكنه على كل حال قد عاد، وودَّع عهد الانقياد.

(حصل تنتون على عفو ملكي من ولي العهد بعد أن غيب الموت أباه الملك خلال رحلة تنتون إلى الأرخبيل المفتت)

المشروع

فور عودته إلى مملكة جهنم قُوبِل بحفاوة بالغة، وحيث إنه لم يعرف أحد من الجهنميين شيئًا عن رحلته "المرهقة والمجهدة والكثيرة النفع" إلى تلك الممالك الكثيرة، فقد انقلبت المملكة رأسًا على عقب لتسمع منه قصصًا، وحكايات أروع من الخيال وأحلى من العسل.

محدقين إليه ومستغربين جلست جموع غفيرة ليحكي لها تنتون تفاصيل رحلته إلى الأرض الممزقة البعيدة، التي يفصلها

عـن مملكـة جهنـم بوابـات الحريـق والبوابـات السـوداء، ومسـافات كبـيرة وملايـين الأطنـان مـن الميـاه المالحـة والزبـد.

تلـك التفاصيـل وهـذه القصـص جعلـت مسـتويات الاسـتثارة الفكريـة عنـد أقـصى مـا يمكـن لـدى التناتنـة (الجهنميـين)، وقـد أصبحـت قضايـا كثـيرة مطروحـة للنقـاش أمـام الجميـع وعـلى سـاحات الفكـر والواقـع.

(تبنَّـى الملـك الجديـد فكـرًا إصلاحيًّـا يتيـح للجهنميـين مناقشـة كل مثالـب العهـود البائـدة، سـواء أكان ذلـك عهـد أبيـه أم جـدوده، كـما دشـن ذلـك لسلسـلة محـاضرات سريـة وجهريـة ألقاهـا تنتـون عـلى الجهنميـين).

حـاول الملـك أن يقـدم تنتـون للشـعب عـلى أنـه ابـن المملكـة النقـي الـذي يطيـع الملـك، وسـعى مـع بطانتـه لاسـتغلال نجاحـه ليكـون الملـك هـو الزعيـم المصلـح.

كان تنتـون قـد اقـترح مشروعًـا ثوريًّـا عـلى أصدقائـه والشـباب، الذيـن اسـتمعوا إلى محاضراتـه وقصصـه التـي رواهـا عـن الأرخبيـل المفتـت، كان مضمـون ذلـك المـشروع أن تنطلـق ثـورة في جهنـم، لمـدة تصـل إلى عـشرة أيـام.

ولكـن الأسرة المالكـة حظـرت التظاهـر لمـدد كبـيرة تـتراوح بـين ثلاثـين وأربعين سـنة، ولم يعـرف التناتنة شـكلا للثـورة، ولا مضمونًا سـوى في اجتهـادات متناثـرة لعقولهـم المفكـرة وحكمائهـم النـيرة قلوبهـم، وسـوى من أثـار التصوف الـذي تنعكس ثورته عـلى العالم..

"لب الأمر هو الحرية".

حكيم قديم من حكماء التناتنة.

"عاصفة الأحزان تأتي من غياهب الإنسان".

فيلسوف تنتوني.

"العمر يمضي مثل طابور جلد في ساحة الظالمين".

مجهول

"حياة القلوب في قدح الأرواح الثورية".

متصوف.

"الثورة هي الحل"

مجهول.

"الثـورة ضمـير الأمـة إذا نطقـت الثـورة انفتـق ضمـير الأمـة عن كائـن حي".

مجهول.

"الثورة هي الجمال الذي يسكن داخلنا، فإذا أخرجناه خرج هذا الجمال إلى العالم نورًا وبهاءً وورودًا متفتحة".

مجهول.

قال تنتون: "البرهان هنا على أن الهدوء الداخلي العميق ما هو إلا انعكاس لثورة هائلة خارج النفس، ولكنها تتقلص إلى الداخل رويدًا رويدًا؛ فتلوح كبركان خامد تقدحه شرارة الحب، وتثيره كوامن الغضب، وترفعه إلى السماء بنادق الثائرين".

واستدرك: لابد أنكم لا تعرفون الثورة؟

قال الشباب: بلى.

قال تنتون: فلتعرفوا أولًا الحرية.

قالوا: صفها لنا وعرفنا بها وأخبرنا عنها.

قال: "الحرية هي رعدة داخلية تأخذ المرء فتدفعه لينطلق في آفاق الوجود، إن المسافة بينه وبين خالقه لا يعلمها إلا علام الغيوب؛ فلينطلق بفكره إلى ملكوت السماء، ولينزل بقوته كلها إلى قيعان الأرض.. إن الله لم يخلق هذا الكون بذاك الاتساع، إلا لأنه خلق الإنسان ليتصور نفسه فيه محاطًا بالنعم، منقبًا عن كنوز الأرض، وكل ذلك عائد إلى الفكر فإذا تحرر الفكر تحرر الإنسان من غباء الصلف والكبر والغرور.. وهناك آفات تمنع

المـرء مـن مجـاوزة الحـد المرسـوم لـه مـن قبـل الآخريـن، الأكثـر عتمـة في العقـول، والأشـد صلفـا والأعتـى جبروتًـا في الظلـم.. الحريـة مناقضـة للظلـم.. الحريـة مناقضـة للجهـل.. الحريـة مناقضـة للمـرض.. الحريـة أغـلى مـن الـروح".

قال الشباب: فعلِّمْنا التظاهر.

قـال: التظاهـر هـو تجمـع كبير لأنـاس يهتفـون ويقولـون: "العدل والحريـة"، "تحيـا الثـورة"، "عـاش الشـعب ويحيـا الشـعب".

رفـض أن يضـع سـيناريو خاصًّـا للثـورة، بـل تـرك للجميـع حريـة ممارسـة الفعـل الثـوري بمـن فيهـم الملـك ذاتـه، اعتقـد الملـك أن خطتـه سـتنجح في اسـتقطاب الشـباب إلى صالحـه، ومنهـم تنتون، ولكنـه نـسي أن الفكـرة لا يسـتطيع التعبـير عنهـا سـوى صاحبهـا.

الثورة في يومها الأول

نـشر الملـك - مـن خـلال حاشـيته ووزرائـه وعسسـه وبصاصيـه وشرطتـه - مشروعـه للثـورة، واشـترط عـلى مـن يشـارك فيهـا أن يحـترم القواعـد التـي سـيضعها جلالتـه حتـى تنجـح وتـؤتي ثمارهـا.

وكانت القواعد التي وضعها الملك لإنجاح الثورة كالآتي:

أولًا: ألا تكون في يوم شديد البرد أو شديد الحر.

ثانيًا: أن يُمنَع الشباب من التجوال في الشوارع الكبرى في المملكة خلال الثورة.

ثالثًا: الديموقراطية، ومعناها أن يشارك فيها الأرستقراطيون (الطبقة الممتازة) فقط، وذلك لخطر مشاركة الطبقات الأخرى على أمن الأقاليم.

رابعًا: تستثنى الأقاليم المحتلة من التثوير؛ فلا داعي لإثارة أحزان جلالته.

خرج الملك في اليوم الأول للثورة إلى باحة قصره، وحيَّا جمهور العاصمة من الأقلية الممتازة التي احتشدت لإنجاح ثورته، وهتف وهتفوا وراءه: تحيا الثورة، استمر الحال هكذا حتى أدرك جلالته الملل، وضجرت نساؤه من الجمهور الذي لم يقدِّم جديدًا لا في الفكر ولا في الأسلوب، وتشوقْن إلى سماع حكايات تنتون التي انتشر ذكرها على ألسنة جواري القصر وعامة الناس.

في الحقيقة لم يكن تنتون سوى ثعلبان، صهرته تجارب الأرخبيل المفتت؛ فلم يتعجل نجاح بذور مشروعه، كما أنه خشي أن يغضب جلالة الملك ببطولة لم يأتِ موعدها بعد، فآثر

الصمت حيال المشروع الذي استمر ليوم واحد فقط.

تلقى تنتون خطابات صاحبات الجلالة من زوجات الملك وأخواته، التي تؤهله لدخول القصر مرة أخرى، ولكن هذه المرة سيكون له وضع خاص، يمكنه من استقطاب أجمل جميلات العالم الخفي إلى صالحه، وقد كن يهوديات على حق؛ يبتكرْن أكبر الحيل للإيقاع به، ولكنه جعل يمنيهنَّ، ولا يجيبهنَّ.

كان من تداعيات اليوم الأول للثورة أن تنتون أصبح حرًّا طليقًا يجوس في شوارع العاصمة كما يحب، ويجالس كبار القوم، ويحاول إفهامهم أن الثورة التي يدعو إليها ليست سوى غطاء للحفاظ على ثرواتهم وممتلكاتهم، وأنه ليس طامعًا فيها بقدر ما هو حريص على أمنهم وسلامتهم، فصار معشوقًا من نساء الطبقة العليا ورجالها.

واحدة فقط من بينهن نجحت في اختراق شغاف قلبه، واحدة لم يرَ مثيلاً لجمالها، ظل مبهورًا بها وهي تخطر أمامه في الثياب الملكية كأروع ما تكون نساء الملوك، ولكنها كتمت في قلبها ما يجعله يتصدع أمام ذلك الفارس الكاتب الرياضي المقاتل، الذي صهرته الأيام والخبرات حتى استوى رجلاً تطمع النساء في مثله.

استمرت عينا كل منهما تلحظان بعضهما من بعيد كلما التقيا في القصر، ويعتصر قلب كل منهما العشق والهيام، كانت راشيل أخت الملك الشقيقة، التي يسري أمرها في الإشارة باليد، أو بفرقعة الإصبع، أو بغمزة العين، كانت البركان الذي جعل تنتون تضطرب خطاه، ويتعثر الكلام على شفتيه، حتى جاء اليوم الذي يختبر فيه المحب والحبيب.

أرسلت راشيل تستدعيه؛ لكي تستمع مباشرة لحكاياته التي ملأت الآذان، وانتشرت على ألسنة الجميع، وفور دخوله إلى جناح سيدة القصر، لاحظ خلوه من الجواري والخدم، وأن شخصًا واحدًا فقط هو الموجود، وبين ابتسامة جريئة تظهر اللؤلؤ المنظوم وراء الشفاه، وغمزة لا تقل سحرًا عن الصباح الوليد، انحنى تنتون محييًا.

قطع الصمت صوت صاحبة السمو:

على عكس ما يقال عن شجاعتك.. فأنت تقف مضطربًا أمام امرأة.

أجاب: صاحبة السمو، إنما أنا رجل متواضع من عامة الشعب، رفعته يدكم الكريمة إلى خدمتها.

لا يدري متى حدث هذا وكيف! رأى الأردية الملكية تسقط أرضًا، رفع بصره رويدًا؛ فوجد ساقين من زجاج صافٍ، ثم نظر إلى أعلى فوجد – يا لله – نهدين من عاج يضطربان من الشهوة، أسفلهما سرة كالفنجان، ورأى (...) كأشهى ما تكون بنت حواء.

قالت: أحبك يا رجل..

قال: مولاتي...

قالت: لست مولاتك.. أنا محض امرأة يخفق قلبها بالعشق، ويشتعل (...) بلظى الاشتهاء.. أنا امرأة، ألا تفهم؟

ظل تنتون صامتًا، وجمد لا يتحرك.

قالت: لا يمكن أن يلومني أحد، وحتى الملك لا يستطيع، فقد ضوجعت نساؤه من رجال آخرين شغفنهن حبًّا، وأنا امرأة يهودية راشدة بحثت عنك في رجال القصر الذين سبقوك إلى، عارف: قمْ فضاجعني.

جمع تنتون قواه، وانصرف موليًا ظهره إلى أجمل نساء الملوك جميعًا روحًا وجسدًا.

الثورة في يومها الثاني

لم يكن تنتون يتوقع أن يمر عام كامل على اليوم الأول للثورة، فقد أحدث ذلك اليوم استياءً كبيرًا لدى عامة الشعب، ووجد تنتون نفسه مضطرًّا إلى قبول اقتراحات من مستويات أخرى للقيام بثورة، كان المستوى الأدنى من المجتمع على أتم استعداد لتفجير ثورة من نوع خطير، خصوصًا أنه المستوى الأكثر عددًا، والأوسع نطاقًا في جميع الأقاليم.

خرج تصريح من الطبقة العاملة يستأذن القصر في تفجير ثورة، وخاطب العمال تنتون في هذا الأمر، فسعى بنفسه لدى الملك في الإذن للعمال والحرفيين والفلاحين الأجراء في تنظيم مظاهرة ضخمة، وأكد تنتون للملك أنه لن يكون هناك خطورة على الأمن العام، واشترط الملك أن تستثنى العاصمة من المظاهرات، وأن يقتصر الأمر على الأقاليم.

في اليوم المحدد خرجت مظاهرات ضخمة في شوارع وميادين الأقاليم، تهتف: تحيا الثورة، وظلت كذلك حتى استشعرت الجموع قوتها وكثرتها، فامتنعت عن الهتاف لجلالة الملك، بل استمرت في الهتاف للثورة، التي لم تهضم فكرتها بعد، وحين حل المساء عادت الجموع الغفيرة إلى مضاجعها،

وتأكد الملك من ولاء تنتون، ولكنه أحس عقب تقارير سيادية خطورة الأمر على مستقبل الملكية، في وطن أغلب مواطنيه من الطبقة الكادحة.

راسلت نساء ينتمين إلى الطبقة العاملة تنتون، وأوضحن غير مستحياتٍ، أنهن رهن إشارته، وسيتسابقن إلى تدفئة فراشه في ليالي الشتاء، ولم يكن صاحبنا على استعداد للخضوع لشهوات النساء في كل الطبقات، فأوضح لهن غير مبطئ أنه لن يكون ضحية الفساد الذي يضرب السلم الاجتماعي كله.

انتهزت راشيل فرصة ثورة البروليتاريا وانشغال الملك ورجال القصر بها، وجلست مع جواريها المقربات تبث لهن شكواها من غياب عارف المؤلم، (هكذا ذكرت اسمه: عارف، نعم.. رجل بلا ألقاب)، كيف أتأكد من حبه وأنا لا أعرف إلا إقرارًا واحدًا بالحب، طريقة واحدة.. أسلوبًا واحدًا؛ أن يرتشف جسدي نقطة نقطة، وأن يصل بي إلى الذروة.. إلى الرعشة، ماذا لو كنت ابنة الطبقة العاملة، هل كان سيعشقني؟ هل ما أنا فيه من بحبوحة الغنى، والثياب الملكية هو السبب في امتناعه عن مخدعي؟ لقد خلعتها أمامه، واضطربت أنفاسه تحت وقع الشهوة المستعرة، لكنه لم يخطُ خطوة واحدة تجاهي، بل ذهب وتركني وأنا أرتجف وجسدي يغلي.

هل يشك في إخلاصي؟ لقد امتنعت عن معاشرة رجال آخرين، صمت عن الجنس، لم يعد لي رغبة إلا به، لقد تركت الصلوات والمعابد، أقلعت عن سماع المواعظ وقراءة التوراة.. إن عارفًا سواء أكان يحبني أم لا، ما هو إلا رجل من فولاذ يستحق العشق والوله.. أحبك أيها الجهنمي المتمرد..

الثورة في يومها الثالث

شعر رجال الدين من المسلمين والمسيحيين برغبتهم في الالتحاق بركْب الثورة، خصوصًا أن أبناء الطائفة اليهودية يتمتعون بامتيازات خاصة، وصلت بهم حد هدم مساجد ضخمة له القدسية الكبرى لدى المسلمين وإقامة معابد يهودية مكانها، كما أن نفوذهم تدخل لمنع تجديد الكنائس؛ وبذلك أصبحت الغالبية العظمى من الرعية - وهم المسلمون والمسيحيون - واقعة تحت وطأة اضطهاد ديني واضح، وتأكد للعامة عامًا بعد آخر حقيقة الانتماء الديني للأسرة المالكة.

حلُم رجال الدين بمملكة كمملكة اليوسفي، وعلى هذا

الأساس قدموا رجاءً لتنتون بأن يتوسط لدى الملك للسماح لهم بتنظيم مظاهرات يتقدمها رجال الدين، وتبادل الشيوخ والقساوسة الخطب في المساجد والكنائس.

مرت المظاهرات بسلام، ولم يهتف طلاب العلم ولا الرهبان ضد الملك الضعيف، بل نفذوا ما أراده تنتون حرفيًّا، ولم يرتكبوا أعمالًا عدوانية من شأنها الإخلال بطبيعة الرسالة المقدسة التي يؤدونها.

وفي ثياب سوداء محتشمة ونقاب يخفي ولا يعلن، تسللت راشيل تحتَ جنح الليل إلى إمام مسجد العاصمة، الذي كان يعرفها منذ طفولتها في عهد والدها، كشفت وجهها فعرفها الشيخ.

قالت: دون مقدمات أنا أريد أن أسلم.

قال الشيخ: مرحبًا، ولكن إسلامك سوف يسبب مشكلة وإحراجًا للقصر، ونحن في مرحلة حرجة، وأنت يا مولاتي تعلمين ما نعيشه من حلم الثورة والحرية!

قالت: أنا أتفهم، ولكن معشوقي لا سبيل إليه، فكيف أنتظر؟

قال: من هو؟ لا تنسيْ أنك لن تستطيعي الزواج من غير مسلم بعد إسلامك.

قالت: إنه (...).

قال: على أية حال، لن نستطيع أن نشهر إسلامك في هذه الظروف، فيكفيك أن تؤدي الصلاة في مخدعك دون أن يعلم أحد.

انصرفت راشيل أو فاطمة (الاسم الجديد لها بعد إسلامها)، وعادت إلى القصر وروحها أكثر إشراقًا، خصوصًا بعد أن تعلمت الصلاة وصارت تؤديها دون أن يعلم أحد..

الثورة في يومها الرابع

بعد عام آخر من ثورة الشيوخ والقساوسة أحست الحاشية بخطورة ما يحدث على مستقبلها السياسي، فلم تفتر عن مخاطبة الملك في تسليح الشرطة والعسس والبصاصين بأسلحة أكثر حداثية، أسلحة من شأنها أن تحبط تمردًا وشيكًا على القصر، من تلك الجموع الغفيرة التي شاركت خلال السنوات الثلاث في نموذج مستحدث للثورة، كان وراءه تنتون بن تنتن الذي ظفر بثقة جلالته.

تدخلت فاطمة لدى أخيها في اللحظة الأخيرة؛ كي تنقذ تنتون من إجراء قد يحد من حريته، ويبقيه سجينًا بقية عمره، فانصرف الملك لقبول تسليح الشرطة فقط، ولكنه وضع تنتون تحت المراقبة المشددة.

ومهما كان الملك ضعيفًا فإنه يحمل في داخله قوة السلطان وأمره وجبروته، فأطلق يد مديري الأمن العام في الحصول على أسلحة متطورة، تحسم المعركة مع أي تمرد وشيك، هذا مع امتناع الجيش عن ضرب الجهنميين.

ولم يمر عام آخر حتى أصبح رجال الأمن على أتم استعداد لمواجهة الحيل الجماهيرية، ووأدها في بدايتها، وخلت الشوارع والميادين في اليوم القومي للثورة، الذي يصادف اليوم الأول الذي ابتكره الملك.

وشارك عدد ضخم من رجال الأمن في عرض عسكري في العاصمة وحدها دون الأقاليم، وبلغت أنباء العرض أقاليم المملكة الحرة والمحتلة، وشعرت الطبقة الكادحة بأنها ستكون ضحية معركة غير متكافئة، واعتلَّ نموذج الثوار من رجال الدين بعد فتوى نافذة بحرمة الخروج على جلالة الملك.

ولكن تنتون لم ييئس، وكان يعلم مدى ما يشكله شخصه الواحد الضعيف على مستقبل الملكية في بلد يحكمه الملوك منذ

نشأته، فتحرك من خلال أصدقائه وزملائه من المثقفين، ورجال القصر الأكثر دهاءً من حاشية لا يهمها سوى العيش على حساب الطبقات الدنيا، وبدأ يعد بنفسه للثورة في يومها الخامس.

الثورة في يومها الخامس

يقول الرواة: إن الحاشية أرادت أن تقضي على تنتون قضاءً نهائيًّا، ولم تلحْ فرصة أمامها لفعل ذلك، خصوصًا وأن الملك لا يزال يثق به، وأخته واقعة في غرامه، ولم يعد خافيًا داخل القصر أنها تركت حياة المجون، وتدور الشائعات حول اعتناقها للإسلام.

وهكذا ظلت البطانة تبحث خلف تنتون، وتضيق عليه الخناق، حتى جاء اليوم الذي ترجوه؛ اقترح تنتون على الملك أن يموِّل مقاومة شعبية ضد المستعمرين في الأقاليم السبعة المحتلة.

قال الملك: ولكن من أين يأتي التمويل وأنت تعلم أن الخزائن خاوية؟

قال تنتون: اترك الأمر لي يا جلالة الملك، فسوف أبحث عن مموِّلين.

قال الملك: أتشير إلى شيء لا أعلمه؟

قال تنتون: بعد إذنكم الكريم.. سوف ننادي في جميع أنحاء الأقاليم بالتطوع بالأنفس والأموال، والحشد ضد العدو.

قال الملك: ومن سيقود تلك الجموع؟!

وهنا وجدها الوزير الأعظم فرصة للتخلص منه؛ فقال للملك: لن يكون هناك أحد مناسبًا أكثر من تنتون لقيادة تلك الجموع، فهو ذكي لبق ومقاتل شرس ورياضي ماهر، إن لديه كل الإمكانات التي تناسب تلك المهمة.

قال الملك: هل حقًّا لديك الاستعداد يا تنتون؟

قال تنتون: أنا طوع أمر مولاي، وسوف تكون تلك الحملة الضخمة تحت رعايتكم المباشرة.

وحسب ما جاء في مذكرات تنتون، فإن القصر أسند إليه جميع ما يراه من أموال من الشعب، فأسرعت الجماهير إلى تلبية هذا المطلب الجليل، وتبرعت نساء الأقلية الأرستوقراطية بحليهن، وكان على رأسهن فاطمة.

وفي اليوم القومي للثورة الذي يوافق العام الخامس هتفت المقاومة الشعبية على حدود الأقاليم المحتلة بحياة الثورة وحياة الملك، ولم يكن سهلًا تحرير سبعة أقاليم دون وجود جيش

نظامي، ولكن تنتون كان قد سبق ورفض إقحام الجيش في هذا الأمر؛ لخشيته أن يستغلها الجنود والضباط صنيعة لدى الشعب؛ لإحراجه والصعود في سلم السلطة، ولعلمه بمدى الفساد الذي تغلغل في صفوف الجيش؛ بحيث لم يعد قادرًا على حماية حدود البلاد.

ظلت المقاومة عامًا كاملاً تدك حصون العدو في الأقاليم السبعة بالأسلحة الخفيفة، حتى تحررت كاملة من المستعمر، وعادت الجماهير الحاشدة - وعلى رأسها تنتون - إلى قلب العاصمة، وكانت المفاجأة التي رجَّت كيان وعرش الملك، فهتفت الجماهير بحياة تنتون الذي كان قائدًا محنكًا، ومحاربًا شجاعًا وذكيًّا.

أسقط في يد الملك وحاشيته، وأحسوا بزلزال قوي يدك أنحاء العاصمة، هتاف لم يسبق له مثيل في عمر المملكة الطويل: يحيا تنتون وتحيا الثورة، وتلاشى نهائيًّا الهتاف الملكي المعتاد بحياة الملك.

وفي خلال الليل الذي هدأت فيه الجموع، برَّح الشوق بصاحبيه، وجعلهما يهبطان سويًّا إلى باحة القصر، التقى تنتون بفاطمة، وقال لها: أشكركِ على انحيازك لصفوف الشعب والمقاومة.

قالت فاطمة (بعدما لمست في نفسها الكبرياء): إنني أحب وطني أكثر من أي شيء.

قال تنتون: أكثر من أي شيء، حتى مني أنا؟

قالت وقد أخذتها العبرة: لم تعد مجرد رجل من عامة الناس، بل لديك الآن آلاف المعجبات، يَسعيْن لإرضائك.

قال ضاحكًا: هل تغار مولاتي؟!

تراجعت محييةً، وانصرفت بسرعة إلى مخدعها، وتركت وراءها روحًا تتمزق داخل صاحبها.

الثورة في يومها السادس

تدارس المثقفون الموقف في اجتماعات سرية، ولكن كالعادة حدثت خلافات بين الفرقاء الليبراليين والشيوعيِّين، وسعى كل فريق لإثبات أحقيته في قيادة الثورة؛ فالشيوعيون من جهة يريدون أن تسود ثورة البروليتاريا (الطبقة الكادحة)، والليبراليون يرون ذلك خطرًا على مستقبل الثورة والديموقراطية، كما أنه حدثت انشقاقات في صفوف المعارضين المستقلين.

وفي هذا الظرف الدقيق جاءت الأنباء بمرسوم ملكي يضع تنتون قيد الإقامة الجبرية، وانتشرت الشائعات حول مقتله، وهنا استغل الطابور الخامس الفرصة لضرب الثورة في مقتل؛ فأشاع تورط القصر في الحادث، وأصر كبار رجال الدولة آنذاك على عدم التصريح بوجوده على قيد الحياة من عدمه، ولم يكن كبرياء في موضعه؛ فقد خرجت المظاهرات من جميع أنحاء الأقاليم تطالب بالإفراج عنه إن كان حيًّا، وبالثأر له إن كان مقتولًا، ووقع الملك في حيرة من أمره؛ فلم يعد قادرًا على اتخاذ قرار.

وصلت المظاهرات أبواب القصر في العاصمة، وهتفتْ بحياة تنتون وحياة الثورة، للمرة الثانية بعد حملة التحرير الكبرى للأقاليم المحتلة، واعتبرته بطلًا قوميًّا، وهددتْ بمحاصرة القصور الملكية، والتنكيل بالنخبة الحاكمة.

وبناءً على مشورة مديري الأمن انطلقت كتائب الشرطة في الشوارع واستخدمت أسلحتها في تفريق المتظاهرين، ونسيت تمامًا أن المقاومة لم تكن قد سلمت أسلحتها، وأنها – أي المقاومة – كانت تشعر بالحرج من استخدام الأسلحة ضد جهاز الأمن الداخلي، الذي يمثل مؤسسة من مؤسسات الدولة.

لكن مع تفاقم الوضع وسقوط قتلى في الشوارع، اعتبرت المقاومة أن ذلك تصريح باستخدام سلاحها ضد السلطة، كل ذلك ولم تخرج مراسيم تفيد ببقاء تنتون على قيد الحياة من عدمه.

داخل السجن الملحق على القصر الكبير الذي يقيم فيه الملك وحاشيته أُودع تنتون، ولم يعد من سبيل للوصول إليه، وأدار الشباب والمثقفون عمليات كر وفر مع رجال الأمن في الشوارع، وأمام تفوق سلاح الشرطة على أسلحة المقاومة الخفيفة، وبعد تحرج الكثيرين من قتال إخوتهم في الوطن، تقلَّص عدد المقاومين في الشوارع، وانسحب الباقون إلى الجبال والهضاب والغابات، وبقي المثقفون والطبقة العاملة ورجال الدين يهتفون ضد الملك في الشوارع، وزاد من تفاقم الوضع خروج الفتاوى من داخل المساجد والكنائس بمشروعية مقاومة الشرطة في الشوارع، وهتف المتظاهرون ضد الملك.

في جناحها الخاص بالقصر جلست فاطمة تبكي، ورغم علمها أن تنتون لا يزال حيًّا فإنها شعرت بالخطر على حياته، خاصة أنها تعرف أن الملوك لا تقبل بوجود الخصوم السياسيين، حتى وإن كان أخوها ملكًا ضعيفًا تتحكم فيه حاشيته، فسوف يتحول إلى أسد شرس، يأكل من لحوم خصومه.

سنحت لها فكرة، قد تعرضها هي نفسها أخت الملك للموت بتهمة الخيانة.

الثورة في يومها السابع

كان سهلًا أن تزور تنتون في سجنه، لكن لم يكن سهلًا إخفاء الأمر؛ فعيون البصاصين وحاشية القصر كانت تتابعها وتراقبها عن بعد وعن قرب، جعلت تشك في الجميع، حتى جواريها كن موضع شكها، خصوصًا بعد انتشار شائعات عشقها لتنتون وانتقالها للإسلام.

تقدمها الحراس إلى زنزانته، فتحوا الباب وتركوها، قالت: ألا تشعر بما أنا فيه؟

قال – وقد تملكه الغضب من أخيها: إن الملوك ونساء الملوك لا يعرفون سوى شيئين؛ السلطة والمال، ألا ترين الفساد الذي يدب في أوصال دولتكم المجيدة، لقد ترك الأمر لحاشيته وقادة جيشه حتى أوردوه التهلكة.

قالت: عارف.. لا تظلمني، أنا بعيدة عن كل هذا، إن ما يهمني في الأمر كله هو أنت، لقد أسلمت، ألا تعرف ذلك؟!

قال: نعم علمت، ولكن لا علاقة لإسلامك بما أنا وجهنم فيه.

قالت: أنت تهرطق! أليست هذه هرطقة؟! لا تكن أنانيًّا، أنا أحبك.

قال: لست مهرطقًا، كما أن الحب وحده لا يكفي، إن ولاءك لعائلتك وليس لعامة الشعب.

قالت: لو شئت قلت إن ولائي لتراب وطني.

قال: هذا يكفي، اذهبي واتركيني لقصرك والملك والحاشية.

بكت بكاءً شديدًا، ثم قالت: سوف تعلم في المستقبل حقيقتي أيها المتمرد العنيد.

حين علم الملك بزيارتها لتنتون في زنزانته فرض عليها الإقامة الجبرية في جناحها في القصر.

تحول العيد القومي للثورة إلى يوم تتجدد فيه المظاهرات ضد الملك، وجاء هذا عقب سقوط قتلى وشهداء من الجانبين الشرطة والشعب، وتسرب للجموع الغفيرة حقيقة المكان الذي يحتجز فيه تنتون، فدارت رحى حرب شوارع بين الفريقين، وأصر الثوار على الإفراج عنه، فأفرج عنه الملك شرط أن يترك العاصمة إلى إقليم آخر.

الثورة في يومها الثامن

عقب الإفراج عنه لم يكن أمامه سوى الالتحاق بالثوار في الجبال، ولم يكن الثوار وحدهم قاطنيها، بل كان سبقهم منذ عهد الملك الأب الجماعات المتطرفة، ولم تكن الجبال مجرد مكان للاختباء، بل أصبحت جامعة تخرج التكفيريين والمتطرفين.

ومنذ صعود الثوار إلى الجبال دارت رحى حرب كلامية بين فصيلين يحملان السلاح، ويدرك المستمع للوهلة الأولى خطورة الأمر، ولكن مع وصول تنتون تراجعت نبرة التهديدات تدريجيًّا، وأمكن له إدارة حوار مع الفريق الآخر.

في أحد الكهوف وعلى أضواء النيران المشتعلة التقى ممثلو جميع الفرق مع تنتون؛ وأدرك الجميع أنهم أمام زعيم قومي من الطراز الأول، فهو الذي قاد المقاومة حتى طرد المحتل، وهو الذي أشعل الثورة ضد الملكيين في العاصمة.

قال تنتون: لماذا تكفرون المجتمع الجهنمي؟

قال أحد المشاركين في الحوار:

لأنه يحكم بغير الشريعة، مجتمع كهذا حلال الدم.

قال تنتون: أنتم تناقضون أنفسكم بهذا الشكل، فالمجتمع لا يحكم، وإنما الملك وبطانته هم من يمارسون الحكم.

قال آخر: الملك – إذًا – كافر.

قال تنتون: قبل الحديث عن الكفر والكفار، حدثوني أولًا عن الشريعة.. ماذا تقصدون بها؟

قال أحد الفرقاء: إقامة الحدود برجم الزناة وما أكثرهم، وجلد شاربي الخمر، وقطع يد السراق.. إلخ.

قال تنتون: هل تختصرون الشريعة في الحدود؟

وظل تنتون يراجعهم يومًا بعد آخر، وأصبح الأمر أكثر إيجابية حين صعد إلى الجبال أئمة وشيوخ هربًا من بطش رجال الأمن، وصار هؤلاء الفارون – بعد وقت وجيز – سببًا في مراجعة الكثير والكثير من التكفيريين والمتطرفين لأفكارهم المنحرفة.

وفي اليوم الذي يعتبره الجهنميون عيدًا قوميًّا للثورة، هتف الجميع من التكفيريين التائبين والمقاومة بحياة الثورة وحياة زعيمها تنتون، وعلم الجميع من خلال الفارين إلى الجبال أن قوات الأمن أصبحت أكثر شراسة، فهي تداهم البيوت وتعتقل المشاركين في المظاهرات دون روية، وصار هذا اليوم مأتمًا للمملكة ككل، ولكن مع مرور الوقت أدرك الملك نفسه أن الوضع أصبح أكثر خطورة عليه.

وجاء الخطر الأعظم حين انشق عدد من ضباط الجيش عليه، وأعلنوها ثورة ضده، ولكن التناتنة مع خبرتهم بالأمر لم يؤيدوا تلك الثورة على الملك، بل إنهم تمسكوا بمدنية الثورة، وأنها - أي الثورة - تسير في مسلكها الصحيح حتى اللحظة الراهنة، وتدخل الجيش سيعطل مسارها، كما أنهم - وبعد الذي رأوه من بطش الشرطة المدنية - أصبحوا أكثر وجلاً من العسكريين، فالتحق ضباط الجيش المنشقين بالثوار في الجبال.

الثورة في يومها التاسع

تعرضت بيوت الجهنميين لهجمات متلاحقة من الشرطة، واعتقل عدد كبير من زوجات الثوار، وتعرضن للتعذيب داخل الأقبية والسجون، حتى الأطفال.. فإنهم لم يسلموا أيضًا من الملاحقة الأمنية، خاصة بعد مشاركتهم في المظاهرات، واستخدامهم الحجارة والنيران في التصدي لهجمات رجال الأمن في الشوارع.

رويدًا رويدًا بدأ الشرطيون يشعرون بتأنيب الضمير، وألقى بعضهم أسلحته وتخلصوا من زيهم الرسمي، ولاذوا بالفرار، وألقى الملك خطابًا إلى الأمة، استشعر المستمع إليه النهاية المحتومة، جاء فيه:

"أيها الجهنميون الشرفاء.. لقد تحملتم ما فيه الكفاية طوال السنوات التسع الماضية، تحملتم الفقر والمرض والقتل والدمار، والخوف.. أنا الآن أشعر بما تشعرون به.. ولكنني أعدكم بأن الأمور ستسير إلى الأفضل، سوف تتوفر الأغذية والغطاء، سوف تعودون لممارسة حياتكم الطبيعية، سوف تشعرون بمزيد من العدل في الرواتب، ومزيد من الحرية في ممارسة شعائركم الدينية.."

لم يكن الملك يعلم أن خطابه موجه لحاشيته فقط؛ فأغلب شعبه فر إلى الجبال والهضاب والغابات، مسلحًا بالفكر والقوة، ولديه قيادة يثق بها، كما أنه أصبح شعبًا لا يخدع، وبعد سنوات القهر التي جعلته داعرًا، جاءت سنوات الثورة لتجعله شعبًا ثائرًا نقيًّا.

طلبت فاطمة مقابلة أخيها بعدما أيقنت أن النهاية قد اقتربت، فوافق على لقائها، وظلت بين يديه تبكي وتتضرع إليه أن يترك الجزيرة فورًا، قالت: إن الثوار لن يرحموك، لقد قتلت شرطتك المئات وعذبت الآلاف، ماذا ستفعل إذا هاجموك، سوف يقتلونك؟!

قال الملك في صوت متهدج: إن الجيش سيحميني.

قالت: إن الجيش لن يستطيع فعل شيءٍ أمام شعب ثائر، كما أن الكثير من الضباط في جيشك صعدوا الجبال وانضموا

للمرابطين هناك، وقادة جيشك الذين أفسدوه ليسوا بأبعد منك عن طلقات الثوار، إنني أتوسل إليك أن ترحل، سوف يذبحونك!

خلال لحظات دخل الحاجب وحيا الملك والأميرة، وقال: إن لدي أخبارًا هامة وخطيرة يا مولاي.

قال الملك: تكلم بسرعة.

قال الحاجب: إن الثوار يعدون أنفسهم لمهاجمة العاصمة.

قال الملك: لم يعد هناك وقت، ألن تهربي معي؟

قالت: لا.. سأبقى هنا ولن أبرح وطني.

قال: كيف ستعيشين في جهنم بعدي؟

قالت: اذهب أنت، فلم يعد هناك وقت للجدال.

إلى سفينة في البحر اتجه الملك وأسرته، زوجاته وأبناؤه، وترك فاطمة في القصر وحدها تبكي أخاها الذي لم يستطع أن يحمي ملك آبائه، وتنتظر حبيبها الذي سيدخل العاصمة دخول الفاتحين.

الثورة في يومها الأخير

انحدر تنتون وخلفه الثوار من الجبال، وخرجوا من الغابات، وبدأ أمراء الأقاليم يغادرون مقراتهم الفخمة، والشرطيون يفتحون السجون والأقبية، وشرعت النساء يزغردن في الشوارع، والأطفال يرفعون ما تراكم من الحجارة، واليهود يهرعون بأموالهم التي نهبوها من دماء الشعب إلى السواحل، ولم يكن الكل محظوظًا أو موفقًا في الفرار، فسيطر الثوار على الموانئ، واستغلوا حياد الجيش، فاقتحموا مقرات الشرطة فلم يجدوا بداخلها أحدًا..

طالب تنتون الثوار بالهدوء والتعامل مع الأمر بمنتهى الحكمة، وقال لهم: "إن من أخطأ سوف يعاقب، وإن نجوا من محكمة الدنيا فلن ينجوا من محكمة الآخرة"، ولم يستطع أن يسيطر على الوضع بشكل كامل، فتخطاه شباب الثوار إلى إقامة مقاصل في الميادين، وسيق اليهود إليها سوقًا، وصفقت النسوة والرجال على وقع الرؤوس الطائرة والدماء الرشاشة.

وكانت معركة العاصمة قد أصبحت محسومة بعد هروب الملك، فسلمت الشرطة كل شيءٍ للثوار، وخضع قادتها ومديروها للتحقيق الفوري، ونفذت بحق الأكثرية منهم أحكام بالإعدام، وصارت المملكة كلها تحت سيطرة الشعب الثائر.

أقام الشعب في كل مكان مشانق ومقاصل، وعرض الشرطيون الأكثر سفكًا للدماء على محكمة من المصابين وذوي القتلى؛ فعلقوا كغيرهم على المشانق، وتأرجحت أجساد المرابين على الحبال، وهتف الثوار: تحيا الثورة.

وخطب تنتون في الجماهير:

"أيها الثوار والمضطهدون، يا من صبرتم على القتل والفقد والأسر والتعذيب، أيها الشيوخ والأئمة والقساوسة والرهبان، يا من قاومتم وضحيتم بالغالي والرخيص، أيها الاشتراكيون البؤساء الذين تنادون بالعدالة الاجتماعية، أيها الليبراليون الذين تحلمون بالديموقراطية، أيها الإسلاميون الذين بذلتم الجهد من أجل نجاح ثورتنا المجيدة.

أقول لكم: لن نفاجئكم بوطن يسود فيه حزب واحد، لن نفرقكم أمام أحزاب ضعيفة لا تقدم جديدًا للوطن، لن نترككم تعيشون في حلم خلافة لم يأتِ موعدها بعد، بل إننا سنعمل معكم على إتاحة وطن للجميع.. يعيش فيه الشيوعيون والليبراليون والإسلاميون في واقع واحد، يقدمون فيه أروع ما لديهم من أجل خدمة الوطن والإنسانية..

أيها الثوار يا أبناء الشهداء: لا توقفوا المقاصل في الميادين والشوارع، هناك مزيد من الحبال لتلك المشانق التي ستؤدي

للإنسانية خدمة جليلة، حين تعلقون فيها مزيدًا من أولئك المرابين والمنحلين والسراق، لأولئك اليهود الذين لم يرحموكم، ولم يرحموا الشعوب الأخرى، بل تسلقوا على رقاب الضعفاء والجوعى والمرضى والسذج.

أيها الجنود في الجبال وداخل الغابات وعلى الهضاب.. في السواحل والسهول.. في الصحراء والمروج: لا ترهقوا أنفسكم في حل معادلات الوطنية؛ فأنتم حراسها الأوفياء، ولا تتركوا جراح العهد البائد تؤثر على عقيدتكم القتالية، فأنتم جنود هذا الوطن وثروته.. واطمئنوا فسوف تشارككم المقاومة في حماية هذه البلاد؛ حتى نعيد هيكلة الجيش وفق رؤية الأمن القومي ومعطياته..

أيتها النساء اللواتي تحملن شظف العيش ببسالة، يا مدارس الأمة وكينونتها، لا تدعنَ الحزن يؤثر على قدرتكن القتالية، فقد مضى عهد الاستبداد، ألا فلتذهب الدعارة إلى الجحيم، أيها الزناة واللوطيون، تطهروا من آثامكم، أيها السراق والجوعى، تطهروا من آثامكم، أيها السكيرون تطهروا من آثامكم.

أيتها الجماهير المتطلعة إلى غدٍ أفضل.. أمامنا عمل كثير من أجل البناء والمستقبل، من أجل الحرية، إن العهد البائد قضى تمامًا على شعور الإنسان بإنسانيته، أيها الشعراء والرسامون

والموسيقيون.. اقدحوا شرر مواهبكم، فلتكن عقولكم أكثر حدة عن ذي قبل، لقد دفعتم الكثير بسبب مطالباتكم المستمرة بحرية الفكر والتعبير، لِمَ تسكتون الآن؟

إن هذا اليوم العظيم في تاريخ الأمة لهو انتصار لكل أم ثكلى وكل أرمل، لكل جريح قضى وقتًا طويلاً تحت مظلة التعذيب، لكل شهيد سقط في الشوارع أو الميادين أو في أقبية الشرطة، إن شعبنا الأبي يتطلع إلى جيش وطني، لا تمتد أسلحته إلى صدور أبناء الوطن..."

الفردوس

"كيف سيكون شكل البلاد بعد هذا الزخم التاريخي، فالملك المخلوع الهارب كان آخر الملوك، ولا يحظى بثقة الشعب بعد ما ارتكبت زبانيته وشرطته الخاصة مجازر بحق المدنيين العزل، كما أن أبناءه رحلوا معه في البحر، ولا يعلم حتى الآن مصيرهم"، دارت هذه الخواطر وغيرها برأس تنتون قبل أن يخرج بنتيجة أذاعها على الملأ.

"إن شكل جزيرتنا واسمها لم يعودا ملائمَيْن للوضع الحالي، الذي وصلت إليه بعد الثورة المجيدة، فاسمحوا لي أن أقدم اقتراحًا للجماهير باعتبارها مصدر السلطة الأعلى في البلاد.. إن دولتنا سوف تتحول من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري..

(تصفيق حاد، وهتاف جماعي: تحيا الثورة)

إن دولتنا سوف يكون اسمها: جمهورية الفردوس".

أيدت الجماهير بمشاعر ملتهبة اقتراح قائدها، الذي بدا ديموقراطيًّا جدًّا، وذكيًّا في مواجهتها.

وفي حُمَّى مسؤولياته الضخمة لم ينسَ صاحبنا فاطمة، فوجه بعض شباب القصر للبحث عنها، وكانت قد أُخذَت من القصر، وحبست في السجن المخصص للنساء بالعاصمة، استعدادًا لإعدامها باعتبارها يهودية..

ساقتها الجماهير في عربة مكشوفة تقودها الخيول، ولم يتوقف المشيعون عن مناداتها باليهودية بنت اليهودي، وكلما اقتربت من مكان المحاكمة كاد قلبها ينفطر من الخوف والهلع.

أمام المحكمة التي تسرع أحكامها كالبرق، والتي تحوطها مشاعر متأججة من الجماهير المسلمة والمسيحية وقفت فاطمة، نادتها المحكمة باسمها الأول: راشيل، أنت مدانة بتهمة الخيانة العظمى.

هتفت الجماهير: "نعم نعم.. هي خائنة.. إنها يهودية، الكل يعرف ذلك.. أعدموها.. بعثروا أشلاءها في كل مكان".

كادت يُغشى عليها لولا تدخل الإمام الذي أسلمت على يديه، أخبرهم بصوت عالٍ وأمام هيئة المحكمة أنها أسلمت منذ بضع سنوات، وتدخل شباب القصر الذين أرسلهم تنتون، وأخبروا المحكمة والجماهير أنها دفعت بحليها؛ لتجهيز المقاومة التي حررت الأقاليم المحتلة.

تعرضت للإغماء، حملوها إلى المشفى الميداني، وعولجت وانتقلت مع الشيخ إلى بيته؛ حيث أصبحت أكثر أمانًا.

الرحيل

صارح تنتون نفسه والمقربين منه بأنه سيغادر الجمهورية في أقرب فرصة، وأسند مهمة قيادة البلاد إلى مجموعة من الشباب الطامحين والشيوخ الثائرين، ووضع القيادة في شكل مجلس رئاسي.

كان يعرف مكانها بالضبط، لكنه لم يرد أن يتخذها خادمة أو جارية، بل زوجة، وكم تعطش كثيرًا لرؤية جسدها الذي لم

تغادر صورته ذاكرته الشابة، دق الباب ففتح الشيخ وتسمر واقفًا أمام تنتون، الذي خلا مظهره من أي مظاهر الأبهة والبذخ، تذكر ما كان يتزين به الملوك الذين تعاقبوا على مُلْك جهنم، أصبحت الآن جنة يحكمها أبناؤها.

قال تنتون: هل تسمح لي بالدخول؟

قال الشيخ: تفضل.. تفضل يا سيدي، مرحبًا بك في بيتي المتواضع.

سمعت فاطمة الحوار فاختلج قلبها واضطرب خاطرها على وقع كلمات تنتون القليلة.

قال تنتون: دون أن أرهقك بمقدمات لا داعي لها، أنا أريد الزواج.

قال الشيخ: على بركة الله.. ممن؟

تصلبت أعصاب فاطمة وتشنجت أطرافها، وكادت يغشى عليها.

قال تنتون: راشيل.. أقصد: فاطمة.

أغمى عليها، حملها تنتون إلى السرير، حين أفاقت كانت أولى الكلمات التي قالتها: لن أتزوج من هذا المهرطق.

قال الشيخ: إنه ليس مهرطقًا، لكن الظروف قد تدفع الإنسان أحيانًا إلى قول أو فعل ما لا ينبغي، وأنتِ تعلمين كم ضحى بأوقات شبابه من أجل جمهورية الفردوس.

نظر الشيخ إلى تنتون وكأنه يحفزه على الكلام.

فقال تنتون: رغم أنني لا أستطيع أن أوفر لك مكانًا ملائماً يشبه القصر الذي عشتِ فيه، فأدنى الإيمان أنني أحبك بل أعشقك يا راشيل.. أقصد: يا فاطمة.

قالت باسمة: ألم أقل لك: إنه لا يزال يهرطق.

تفحص جسدها نقطة نقطة، تغيرت ملامح وجهها قليلاً، إنها في الثلاثين من عمرها الآن، تغيرت ملامحه كثيرًا.. طالت لحيته، وانحسر شعر رأسه، قال في نفسه: هل تطلب مضاجعتي؟ قالت في نفسها: ألم أصبح زوجته؟ لِمَ هذا الخجل؟

رقصت كمجنونة، التحما دون أن يتكلما، همست: فارس وحصان، التحما، همس: فارس وفارسة، التحما، هبطا إلى أسفل، إلى أرض الأحلام، قاما من غفوتهما.. صليا، استسلما، قاما، قذفها في الهواء كبالونة، احتضنها، غابا عن الوعي.. ناما.. ناما طويلاً، قام وترك لها ورقة.

***

التقى بعض أصدقائه، قالوا له: إن الأمور على ما يرام، لقد توقفت المقاصل والمشانق بعد أمر من المجلس الرئاسي، اطمأن قليلاً، ودعهم وانصرف.

عقدت المفاجأة لسانه، وجد فاطمة على شاطئ البحر تتحدث إلى بغلة الماء، بدا عليهما أنهما متناغمتان، ضحكتا سويًّا، تصنعت فاطمة الحزن، قالت: يقال إنك ستذهب في رحلة بعيدة وحدك، أنا أيضًا مللت حياة الزوجية الجديدة، فكرت أنه ربما أترك لك السياسة، وأرحل بعيدًا إلى الأرخبيل المفتت، قلت لنفسي: قد تكون فرصة لأكون بطلة من أبطال جمهورية الفردوس خاصة، على فكرة أنا أحب جمهورية الفردوس أنا أيضًا، وأراهن أنني سأنجح في إشعال ثورة أخرى.

قال: ربما تواجهين تهمة الهرطقة، التي هي تهمة سياسية بالدرجة الأولى.

قالت بغلة الماء: إن كثيرًا من المفكرين والإصلاحيين الذين حملتهم يومًا ما واجهوا تهماً شبيهة بهذه التهمة، ولكنني.. أعني.. (ونظرت إلى فاطمة).

قالت فاطمة: هل تقصدين أنني من الممكن أن أواجه تهمة الهرطقة؟ إن شخصًا ما هنا يناديني أحيانًا براشيل..

قالت بغلة الماء: لا.. لستِ مهرطقة، لقد أصبحنا صديقتين أليس كذلك؟!

قال: إنها ترمي إلى أبعد من هذا؛ إنها تنوي السفر على ظهرك معي.

قالت بغلة الماء ضاحكة: ولِمَ لا؟

قال: إنها مشاغبة.

اتحد صوتهما مع صوت بغلة الماء، التي شقت الماء وهي تحملهما:

ولِمَ لا؟

ولِمَ لا؟

ولِمَ لا؟!

مقولات ودراسات تأريخية تحدثت عن وفاة تنتون ونفوق بغلة الماء، حين حاول عبور المحيط الأعظم باتجاه أرخبيل الجمهوريات.

روايات أخرى أكثر توثيقًا أشارت إلى مغامرة ثانية، جازف فيها تنتون بحياته وحياة فاطمة، وعبر إلى أرخبيل الممالك المفتتة مرة أخرى.

لكن أكثر الروايات قربًا إلى الواقع: هي التي وثقت لعودة قائد الثورة المبجل ورأسها الأعظم، مع زوجه المصون إلى

موطنه بعد عشر سنوات من المغامرات والمجازفات، وانتخب رئيسًا لجمهورية الفردوس فترتين متتاليتين بعد أن استقرت أمورها، فدشن لثورة زراعية وصناعية كبرى، عبرت بالبلاد إلى أفق الحداثة والقوة، ثم عاد مرة أخرى مواطنًا عاديًّا في صفوف الجماهير.. يكتب ويربي ويُعلِّم، حتى لقي ربه شهيدًا إثر عمل إرهابي غادر.

تمت